منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

أصول العبادة المسيحية
فى مجال التطبيق العملى

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمى

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

أصول العبادة المسيحية

ودورها فى تحقيق العبادة المتكاملة

بقلم

المتنيح الأنبا غريغوريوس

أسقف عام

للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية

والبحث العلمى

الكتاب : أصول العبادة المسيحية ودورها فى تحقيق العبادة المتكاملة

المؤلف : المتنيح الأنبا غريغوريوس

إعداد : الإكليريكى منير عطية

الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس ـ دير الأنبا رويس بالعباسية مصر

ت : ٦٨٢٤٩٦٢ ـ ٤٨٨٢٥٢٢

الغلاف : الفنان عادل لبيب

المطبعة : شركة الطباعة المصرية ـ العبور ت : ٦١٠٠٥٨٩

الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت : ٤٨٢٠٩٠٣

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢١٢٤٦ / ٢٠٠٣

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس

أصول العبادة المسيحية
ودورها فى تحقيق العبادة المتكاملة

نعلم أننا قد خلقنا على صورة الله ومثاله. فلابد أن نكون فى هذا المستوى مماثلين لله، متشابهين له. هذه العملية، عملية المشابهة المستمرة، عملية الإجتهاد أن نكون متمثلين بالله، وأن نكون مقدسين فيه على غرار قداسته وعلى غرار الكمال الذى فيه... ليست عملية سهلة، إنها تقتضى أن يأتى الإنسان فى كثير من الأحيان أمورا مضادة لطبيعته الذاتية. تقتضى الإنسان أن ينكر نفسه، وأن يكفر بشهواته وميوله ورغباته، هذا الكفران بالنفس وبالشهوات تضحية لا يقدر عليها العاديون من الناس، إلا الذين آمنوا بهذا النوع من الحياة، والذين اشتاقوا أن يصلوا إلى هذا المستوى العالى من الحياة الروحية. أما الناس الذين ينجذبون إلى الأرض، فهؤلاء يرجعون إلى الوراء ولا يتقدمون إلى الأمام، هؤلاء ينزلون بطبيعتهم الروحانية، لأن الروح التى فيهم هى من الله وهى من طبيعة سمائية، لكنهم بإنسياقهم وراء الشهوات، وراء الرغبات المادية الذاتية، ينزلون بأرواحهم إلى مستوى الأرضيات، وهنا ينزل الإنسان عن مستواه الذى خلقه الله عليه إلى مستوى منخفض وإلى مستوى وضيع. وعلى العكس من ذلك إن حياتنا دائما فى الفضيلة هى حياة كفاح مستمر ونضال، وثبات فى هذا النضال على أن يسلك الإنسان دائما ضد شهواته وضد رغباته وضد ميوله الدنيا، محاولا أن يرفع مستواه بالتأمل الدائم، وبالسيرة المقدسة، وبالصلوات، وبأن يسبح فى عالم الروح بتأملات دائمة مستمرة. فى هذا الطريق يحتاج الإنسان إلى وسائط مناسبة.

وسائط الخلاص :

هذه الوسائط هى التى نسميها بوسائط الخلاص وهى ممارسة الأسرار والعبادات المرسومة فى الكنيسة المقدسة. فالعبادة تقرب الإنسان إلى الله وتزيد مشابهة الإنسان بالله، وترفع الإنسان ليكون دائما فى المستوى اللائق به كمخلوق على صورة الله.

ومن بين هذه الوسائط

الصلاة :

الصلاة التى بلا إنقطاع لأنها من وسائط الغذاء الروحانى. لأن الروح بالتأمل وبالتفكير وبالتعبد تنصرف عن الأرض، وتتطلع إلى العالم العلوى، وتحلق فى السماء، وتتأمل فى الله. بها يرتفع العقل ويرتفع القلب، وترتفع الرغبات إلى ماهو فوق المستوى العادى. ولكن فى بعض الأحيان يجد الإنسان نفسه غير قادر على أن يصلى لأنه مثقل فى هذا الجسد. نعم فللجسد ضغوطه على النفس. وكثيرا ما يجد الإنسان نفسه مثقلا يريد أن يرتفع فلا يجد نفسه قادرا على أن يرتفع. ونحن لا ننكر أننا بشر، ولسنا ملائكة، ولا ننكر ما للجسد من أثر على حياتنا. هذا الأمر يشعر به التلميذ أحيانا عندما يذاكر دروسه، فيكون محتاجا إلى صفاء الذهن، ولكن فى بعض الأحيان يجد نفسه غير قادر على الفهم والمتابعة لأنه يجد ذهنه مكدودا مثقلا، ولذلك يحزن ويبأس وقد ينصرف عن العلم إلى أى اتجاه عملى. ولكن لو أن هذا التلميذ إلتقى بمدرس أو بصديق أو بظروف جديدة فربما يفضل هذا المعلم أو هذه الظروف ويمكنه أن يحصل من العلم مالم يستطع أن يحصل عليه فى فترات أخرى. وقد يكشف أن السبب فى عجزه عن الفهم والمتابعة هو حاجته إلى النوم المريح،

وبعد أن يستريح يجد أن عقله وأعصابه قادرة على أن تتقبل المعرفة والعلم. أو ربما كان هذا التلميذ مريضا ببعض الأمراض التى بسببها يصبح الذهن مكدودا، فبعض أمراض الكبد أو بعض أمراض المرارة أو بعض أمراض المعدة أو الأمعاء، تحدث نوعا من الصداع ، وهناك أيضا الصداع الناجم من إلتهابات الجيوب الأنفية وما إلى ذلك. هذه الأمراض والمتاعب الجسدية غالبا ما تكون عوائق تمنع الذهن من الصفاء والتفكير السليم.

هكذا الحال بالنسبة للحياة الروحية. وما نختبره عمليا فى حياة التلمذة أو فى حياة العلم وفى الحياة الذهنية والعقلية نجده أيضا على نفس القياس فى حياتنا الدينية والروحية. فنجد فى بعض الأحيان القلب مثقلا، فلا يستطيع الإنسان أن يصلى أو يتعبد، لا يستطيع أن يشعر بالنشاط الروحى، فهناك جفاف وثقل، وتخمة مانعة للإنسان من أن يواصل عبادته بخصوبة روحية، ومانعة للروح من أن تنطلق بسهولة.

لذلك كان الصوم من الوسائط النافعة المفيدة التى تكفل للإنسان الصفاء وتحقق له إمكانية الإنطلاق بسهولة فى حياة التعبد.

الصوم والنشاط الروحى :

فى الصوم نجد فى الواقع نشاطا غير عادى فى حياة الكنيسة بصفة عامة، وفى حياة الأفراد بصفة خاصة. فالكنيسة عموما - كما هو ملحوظ - تحتشد بالعابدين والعابدات، بالمصلين والمصليات فى هذه الفترة من السنة أكثر من الأوقات الأخرى. وهذا نفسه برهان على قيمة الصوم، وعلى أهميته للشعب كله بصفة عامة، وكثيرا ما نسمع بعض الناس ينتقدونا ويقولون إن الأقباط يقبلون على الكنائس فى الصوم، وإذا سلمنا بهذا جدلا، فهو فى نفس الوقت

برهان واضح ودليل بين على قيمة الصوم، وعلى أن الأقباط وإن كانوا يقصدون إلى الكنائس فى الأيام العادية لكن يزداد إقبالهم على الكنائس فى أيام الأصوام مما يقطع فى أن للصوم أهمية خاصة، كما يدل على أن للصوم علاقة خاصة بالعبادة، فهو يساعد على تنشيط العبادة وعلى تحريك الناس وإثارتهم روحيا حتى يقبلوا على بيوت العبادة ويصلوا لله صلوات طويلة، لأن صلواتنا فى فترات الصوم عادة تكون كثيرة.

كذلك للصوم أثر على حياة الفرد خاصة. فنحن نلاحظ أن الأفراد فى أيام الأصوام تنتعش حياتهم إنتعاشا واضحا ويكثر إقبالهم على العبادة وعلى التضرعات، وتزداد فترات هذه العبادة فى كل يوم لدرجة أننا نلاحظ أن هناك أشخاصا يسألوننا لماذا تمنع الكنيسة الصوم فى فترة الخمسين المقدسة. ويقول بعض الشباب فى حماس إننى أشتهى لو كانت كل أيام السنة صوما لأننى ألاحظ فى حياتى أنه فى فترة الصوم يكون هناك إنتعاش روحى، وتكون هناك سهولة فى العبادة أكثر من الأيام العادية، ومع ذلك فإن هذا الشباب مغال ومتطرف وننصح له بالإعتدال، ونقول له أن للكنيسة حكمة عميقة فى تقسيم أيام السنة تقسيما عادلا بين الصوم وبين الفطر. لأن تنظيم الحياة على هذا النوع فيه نوع من التغيير المثير للنفس، وهو تغيير نافع منشط للقوى الروحية ويدفع بها بعيدا عن النمطية التى قد تؤدى أحياناً إلى الفتور، فمثل الروح مع الجسد، مثل الذى يركب على حصان ومعه لجام، فلو أنه زم على اللجام بشدة وبإستمرار، لتأذى الحصان، وجمح جموحا قد يكون سببا فى سقوط راكبه من فوقه. لهذا فالراكب الحكيم لا يزم اللجام بإستمرار، وإنما يشده فى فترات ويرخيه فى فترات أخرى مع الإحتفاظ باللجام بين يدى الراكب لكى يستعمله فى الوقت المناسب، وهذا تصرف حكيم ومفيد ويكفل للراكب سيطرته على

الحصان. وهكذا تعلمنا الكنيسة بترتيب الأصوام فى بعض أوقات السنة، وهو ترتيب لطيف جميل ونافع جدا للحياة الروحية. إذ تقسم أيام السنة لفترات صوم تعقبها فترات فطر. وفى بعض الأحيان تفرض الكنيسة الصوم بشدة، لدرجة أنها تقول أن الإنسان الذى يفطر فى الأربعين المقدسة وفى الأربعاء والجمعة وفى أسبوع الآلام، إن كان كاهنا فليقطع وإن كان علمانيا فليفرز، بينما تمنع الكنيسة الصوم منعا باتا فى أيام الخماسين المقدسة وفى أيام الآحاد والسبوت والأعياد المقدسة وتعتبر الصوم فى هذه الأوقات خطيئة وتعديا واستهتارا وإهانة لله.

هذا الأسلوب فى قيادة المؤمنين الروحية أسلوب كنسى حكيم ونافع جدا ومفيد جدا ويحقق للسائرين فى طريق السماء قيادة روحية سليمة، ويكفل لنفوسهم الصفاء الروحى، ثم الامتداد والنمو فى الحياة الروحية ولذلك فإن الأتقياء من أبناء الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة هم بغير حاجة إلى إضافة أصوام جديدة. ومن يحتقر أو يزدرى بترتيب كنيستنا الأرثوذكسية يفتعل البر أكثر مما يناسبه، ومن يفتعل البر أكثر مما يناسبه يخرب نفسه ويضر حياته الروحية بإختراعه لنفسه طرقا لا تكون نافعة لبنيانه الروحى. إن كنيستنا فى تنظيمها الروحى لأيام السنة تضع نظاما مثالياً، ليس من الناحية الخارجية العامة الكنسية ولكن حتى من الناحية الباطنية فى قيادة النفس البشرية قيادة روحية تكفل لها التقدم فى الحياة الروحية السامية.

والهدف الأول من الصوم أن ندع اللجام فى يد الروح تمسك به فى حكمة لكى تملك به الجسد وتسيطر عليه، ذلك لأن الإنسان بطبيعة هذا الجسد يميل إلى الترابيات. ولو أن الإنسان إنساق وراء هذا الميل لنزل إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان. لماذا ؟ نقول أولا أنه من الطبيعى أن الجسد لأنه من التراب

يميل إلى الترابيات، ولا خطأ على الجسد فى هذا لأنه أمر طبيعى بالنسبة إلى طبيعته الترابية. كذلك الروح لأنها من الله تنجذب إلى الله، وتنجذب إلى الروحانيات، وهذا أيضاً أمر طبيعى. فباعتبار أن الإنسان يملك الجسد ويملك الروح فهو فى هذه الحالة يملك قوتين متعارضتين : قوة تشده إلى أسفل، وقوة تشده إلى أعلى. ولهذا يبقى الإنسان عادة معذبا بين هذين الإتجاهين مالم يصالح بينهما، ومالم يوفق بينهما، ومالم يقف موقف المالك لزمام نفسه، فيأخذ من الروحانيات بالقدر الذى يناسبه، ويأخذ من الترابيات ومن الجسدانيات بالقدر الذى يناسبه. ولكن من دون تطرف، ومن دون مغالاة. فالإنسان الذى ينكر أن له جسدا، وأن لهذا الجسد وسائط ضرورية لقيامه، وضرورات لابد منها لقيامه، هذا إنسان مغال متطرف يتجاهل طبيعته. وهذا هو الخطأ الذى يقع فيه بعض الناس الناشئين فى الحياة الروحية، فينسى أو يَدعى أنه ينسى أو يغفل أن له جسدا، ويظن فى نفسه كأنه من عالم الملائكة. هذا التطرف وهذا الخطأ يقع فيه عادة الناشئون فى الحياة الروحية أو المبتدئون، لأنه على قول الرسول «فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يغذيه ويربيه» (أفسس ٥ : ٢٩).

فالجسد إذن لا نهلكه لأنه وديعة، ولأنه عطية من الله، يجب أن نحافظ عليه. ويجب أن نرعى القوانين الطبيعية التى تصون هذا الجسد. والجسد له ضرورات.. والطعام بالنسبة للجسد ضرورة. والطعام بالقدر الذى يحتاج إليه الجسد أيضا ضرورة. والماء بالنسبة للجسد أمر ضرورى ومن دونه لا يكون للجسد قيام بل يتسمم الجسد ويفنى ويهلك وهذا يؤثر أيضا على الروح ويؤثر أيضا على نشاط الذهن. لأن للجسد ارتباطا بالروح ارتباطا وثيقا، فلا نستطيع أن نتجاهل أن لنا أجسادا. بل على العكس ينبغى أن نحترم وجود هذا الجسد.

ونعمل حسابا لهذا الجسد. لأنه وديعة. ولابد أن نزود الجسد بضروراته الحيوية التى تلزم لكيان هذا الجسد، حتى لا يتعب، وبسبب تعبه يقع الضرر للذهن والروح أيضاً.

وهكذا نقول للمغالين المتطرفين فى الحياة المادية، الذين يتجاهلون أمر الروح. ويتصورون أنهم أجساد ليست لهم مطامح، وليست لهم أهداف روحية، ينسون أن فيهم روحا جاءت من السماء وهبطت من فوق وأنها من الله، وأنها لَمْ ولا ولن تجد راحتها إلا فى الله. هذا تطرف يقع فيه بعض الناس ولذلك فإن الحكماء العقلاء يعرفون كيف يعطون الروح أيضا نصيبها من العناية. ونصيبها من الإهتمام.

الموازنة بين مطالب الروح والجسد :

الحكيم الحق هو الذى يعرف كيف يوازن موازنة عادلة، موازنة سليمة، بين ما تطلبه الروح فى كيانها ووجودها وصفاتها، وما يتطلبه الجسد فى كيانه وفى صفاته. الإنسان الحكيم هو الذى يوازن بين الإثنين من غير تطرف، ومن غير أن يتدمر أحد العنصرين على حساب الآخر، ومن غير أن يهتم متطرفا بناحية على حساب الأخرى. هذا التفكير المتزن، أو هذه الحياة المتزنة، التى تجمع بين الروح والجسد جمعا عادلا، جمعا منصفا، ولا يتجاهل أن الروح عطية من الله، وأن الجسد أيضا عطية من الله، هذا الإنسان بهذا الإعتدال، وبهذه الحياة المنصفة المعتدلة، يمكنه أن يسير سيرا حكيما فى قيادة حياته الحاضرة، وفى قيادة الحياة القادمة أيضا. والغلطة الكبرى التى نقع فيها كبشر هى التطرف، هى المغالاة، هى أننا نجرى وراء عامل واحد، ونغفل حساب العامل الآخر. الحيوان ليس عنده تطرف، الحيوان تحكمه الغريزة، ولهذا مثلا عندما يأكل الحيوان يأكل بالقدر الذى يحتاج إليه الجسد، وبعد هذا

نرى الحيوان يكف عن الأكل، وحتى لو ضربته فإنه لا يأكل. وكذلك يأخذ من الماء بالقدر الذى يحتاجه ولو أنك ضربته ليشرب ثانية لا يمكن أن يشرب. لكن الإنسان بعكس هذا، الإنسان يمكن أن يأكل أكثر مما يحتاج إليه الجسد، ويشرب أكثر مما يحتاج إليه الجسد، السبب فى هذا أن الإنسان عنده عقل، وعن طريق العقل يأخذ الإنسان خبرة معينة، ويحصل على لذة فكرية. فمثلا إذا أكل، وشعر بلذة فى الطعام، ينسى نفسه فلا يقنع بما يكفيه، وبالضرورات الأساسية، ولذلك يغالى ويتطرف تحت فكرة اللذة، وفكرة التنعم، وفكرة السرور، وفكرة الشهوة، لأن الشهوة مصاحبة للفكرة وللعقل. ولهذا قد ينزل الإنسان إلى مستوى الوحش، وأحط من مستوى الحيوان، لأن الحيوان تحكمه الغريزة، وليس عنده عقل يجعله يمتد بالخبرات وبالأفكار إلى اللذة العقلية أو إلى اللذة الجسدية إمتدادا كما يمتد فكر الإنسان فيها. لذا فالإنسان عن طريق الفكر والعقل يقع فى خطأ المغالاة. والإنسان يقع فى خطأ التطرف والإهتمام بعامل واحد على حساب العامل الآخر وليس الأمر كذلك فى الحيوان. إذن من هنا نفهم أن الروح تساهم مع الجسد فى الإنحطاط.

سبب الخطيئة هو الفكر والعقل :

بهذا نجيب على سؤال يقدم إلينا عادة. الروح من الله، فهل الروح تخطئ؟ نقول : إننا عادة ننسب الخطأ والخطيئة إلى الجسد. وهذا غير صحيح. لأن الجسد كجسد تحكمه الغريزة فلا يخطئ. والحيوان لا يخطئ، إنما الخطأ فى الإنسان. فالخطأ إذن مرجعه إلى دخول الفكر، لأن هذا الفكر - بالتأمل فى اللذة والخبرة فى الشهوة - هو الذى يجعل الإنسان يمتد فى شهوات الأرض الترابية. إذن ليس الجسد هو سبب الخطيئة وإنما سبب الخطيئة فى الإنسان هو الفكر والعقل، مع العلم أن العقل من الله ولكنه بمصاحبته للجسد يتشبع بالجسديات

ويميل إليها وينزل مع الجسد بأكثر مما يتطلب الجسد نفسه. فسر الخطيئة إذن يرجع إلى الفكر وإلى العقل، ولا يرجع إلى الجسد. ولذلك فإن الإنسان يتدنس بالروح قبل أن يتدنس بالجسد.

ومن أجل هذا فالمسيحية فى صميمها تقول إن الإنسان لكى يتخلص من الخطيئة لا يقلع عينه أو يقطع يده أو يقطع رجله أو يقطع أى عضو من أعضائه. إنما الانتصار الحقيقى هو إنتصار الفكر وإنتصار الإرادة. والإنسان يمكنه أن يمنع عينه من النظر من دون أن يقلعها. ويمكنه أن يقطع يده عن الخطيئة دون أن يجرحها أو يقطعها بأى آلة، إنما يمكنه أن يقطعها عن الفعل بطريقة إرادية، أى بتحكم الإرادة.

الصوم مهم لسيطرة الروح على الجسد :

أول وسيلة من وسائل السيطرة سيطرة النفس على الجسد، هى الصوم. لماذا ؟ لأنه يكون أمامك طعام وتمنع نفسك عنه بإرادتك وبإختيارك. قدامك الطعام وليس هناك ما يمنعك، إنما بإرادتك وبإختيارك وبناء على اقتناع، أنت تمتنع عن الطعام، فإذن الصوم يحقق قوة الإرادة، ويحقق سيطرة العقل والروح على الجسد. الصوم شكيمة فى يد العقل والروح، ولجام يربط به الإنسان نفسه عن شهواتها. الصوم درس وأعظم درس لتقوية الإرادة، هو شبيه بالرياضة الجسدية وأثرها فى تقوية البدن. الصوم يقوى الإرادة الباطنية ويقوى السيطرة على الذات. وكلنا يعرف أن الصائمين أقدر من غيرهم على الإمتناع عن بعض أنواع الطعام عندما تكون صحة الإنسان تتطلب أن يمتنع عن نوع معين من الطعام، أو عندما يأمره الطبيب بأن لا يأكل مأكولات معينة تضر صحته. أما الإنسان الذى لم يتعود الصوم فيعجز عن تنفيذ تعليمات الطبيب ويقول : العمر واحد، والرب واحد كما لو كان شديد التدين، مع أنه فى الواقع ضعيف

الإرادة وغير قادر أن يمنع نفسه عن هذا اللون من الطعام. لكن الشخص الذى يصوم والمتدرب على الصوم تجده يمتنع بسهولة وبدون مقاومة كبيرة عما يضره، لماذا؟ لأنه مدرب ولأنه قادر على أن يشكم إرادته ويمنع نفسه عن هذا اللون أو ذاك من ألوان الطعام.

وقل مثل ذلك عن المكيفات الضارة مثل التدخين والخمر وسائر المكيفات وكل العادات الرديئة. فالإنسان الذى اختبر الصوم يكون أقدر على التخلص من التدخين ومن الخمر ومن سائر المكيفات الضارة، ومن كل عادة من العادات الرديئة التى يلزم للإنسان أن يتخلص منها. الإنسان الصائم يكون أقدر على البلوغ إلى هذا المستوى الرفيع، إلى السيطرة على كل عادة من العادات، وأن يتخلص بإرادته من كل شئ يعوق تقدمه الروحى.

فالصوم عن الطعام هو الجولة الأولى التى إذا انتصر فيها الإنسان ينتصر فى سائر الجولات. لأن الإنسان فى حياته تعترضه صعوبات كثيرة فى حياته الروحية، وفى حياته المادية وفى حياته العقلية أو الذهنية. والإنسان قوى الإرادة يمكنه أن يتغلب على هذه الصعوبات. والصوم، لأنه يقوى الإرادة يساعد الإنسان على تكوين فضيلة السيطرة وفضيلة قوة الإرادة وفضيلة الصمود أمام العقبات أو أمام أى رغبة من الرغبات.

الصوم وبلوغ الأهداف العالية :

نحن نحتاج لقوة الإرادة فى ميدانين. أولا. ميدان تذليل العقبات والصعوبات التى تعترض طريق الإنسان. وثانيا : نحتاج لقوة الإرادة فى سبيل الوصول إلى المطامح العالية والأهداف السامية. إذا كان إنسان غير قانع بالمستوى الذى هو فيه سواء من الناحية الروحية، أو من الناحية العلمية، أو من

أى ناحية من النواحى، وتكون أمامه أهداف كبيرة، وهذه الأهداف الكبيرة يحتاج تحقيقها إلى صبر وإلى جهاد، فالإنسان الصائم يكون أقدر من غيره على هذا النوع من الصمود أمام العقبات. وأيضا على الصمود فى سبيل الوصول إلى الأهداف العالية وإلى الأغراض السامية وإلى تحقيق الحياة الأسمى التى يريدها الإنسان. وبهذا يصير الإنسان مالكا لزمام نفسه ومسيطرا على ذاته، ولكن عندما تسيطر عليه ذاته يصير هو عبدا لرغباته أو يقول أنا أريد لكنى لست قادرا. أما فى حياة الصائمين فليس هناك شئ اسمه (المستحيل) لأن الصائم أمكنه أن يسيطر على ذاته. إن غريزة الحياة الأولى كما يقول علم النفس هى أعظم جميع الغرائز. وغريزة الحياة الأولى هى غريزة الطعام ويسمونها بغريزة الحياة الأولى. لأنه بتجارب كثيرة ودراسات شاملة على الحيوان والإنسان تبين أن غريزة الطعام هى أعظم من سائر الغرائز أثرا على حياة الإنسان. فغريزة الطعام أقوى من غريزة الأبوة والأمومة، وغريزة الطعام أقوى من الغريزة الجنسية، وأقوى من غريزة الغضب والمقاتلة والتملك. وقد أجرى العلماء تجارب كثيرة وأمكن فعلا أن يحققوا هذا. ولذلك نجد الأم وهى المثل الأعلى بين البشر فى محبة أولادها لدرجة أن ربنا عندما أراد أن يشبه محبته لنا شبهها بمحبة الأم.. نقول إن الأم وهى المثل الأعلى فى الحب، فى حالات الجوع الشديد يمكن أن تقتل ابنها وتأكله. وقد حدث هذا بالفعل فى جميع الشعوب، فى لحظات الجوع الشديد، أمكن أن نجد أمثلة لأمهات قتلن أولادهن وأكلن أولادهن، وهذا ما يقوله أرميا النبى فى نبوءته «أيادى النساء الحنائن طبخت أولادهن، صاروا طعاما لهنّ» (مراثى أرميا ٤ : ١٠).

بالصوم نسيطر على كل الغرائز :

فغريزة الطعام هى غريزة الحياة رقم واحد. إذن إذا كان الصوم هو الفضيلة التى بها يسيطر الإنسان على غريزة الحياة الأولى وهى غريزة الطعام، فمعنى ذلك أن الصوم هو الفضيلة التى تكفل للإنسان أن يسيطر على سائر الغرائز الأخرى، ومن هنا فإن فضيلة العفة نابعة من فضيلة الصوم، وهناك علاقة مستمرة بين الطعام والنهم الجنسى، فمن يسيطر على غريزة الطعام يمكنه أن يسيطر على شهوة الجنس، وعلى الغضب وعلى التملك والأنانية وعلى سائر الغرائز الأخرى التى تعيق التقدم فى الحياة الروحية. إذن غريزة الطعام يسيطر عليها الصوم. والصوم يعد انتصارا للإنسان وانتصارا للإرادة البشرية على سائر الصعوبات التى تعترض طريق الإنسان فى الحياة الروحية أو العقلية. ذلك هو الهدف الكبير من الصوم.

الصوم يحقق صفاء النفس وانطلاق الروح :

هناك هدف آخر للصوم هو تحقيق الصفاء للنفس والإنطلاق للروح، ودخول الإنسان روحيا فى علاقات تقدميه فى العالم الروحانى، وفى المشابهة بين الإنسان وبين الله. ولذلك نجد أن بعض القديسين أمكنهم عن طريق الصوم أن يتحقق لهم صفاء روحانى كبير، وأن يدخلوا فى علاقات مباشرة مع العالم العلوى، وأن يدخلوا فى مرحلة الكشوف الروحية، والإنكشاف على العالم العقلى والعالم الروحانى والعالم السماوى. وهذه الكشوف تؤيدها خبرات كبار القديسين الذين دخلوا فى المناظر الروحانية. يقول ماربولس الرسول «آتى إلى مناظر الرب وإعلاناته» (٢ . كورنثوس ١٢ : ١). ويوحنا الرائى يقول «كنت فى الروح فى يوم الرب» (الرؤيا ١ : ١٠) فهذه الرؤية العظيمة التى نقرأها فى هذا السفر الكبير، وهو آخر أسفار الكتاب المقدس، لم تكن تتحقق لإنسان

جسدانى أو لإنسان شهوانى. ويوحنا المعمدان الذى عاش فى البرية عيشة راهب ناسك متعبد، أمكنه فى تلك الحياة الروحانية أن يصل إلى مقامات روحية سامية، وأن يرى الله، وأن يسمع صوت الله. يقول يوحنا المعمدان عن المسيح له المجد «وأنا لم أكن أعرفه، ولكن الذى أرسلنى لأعمد بالماء هو الذى قال لى : إن الذى تبصر الروح ينزل ويستقر على رأسه هو الذى يعمد بروح القدس. وأنا قد أبصرت وشهدت بأن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١ : ٣٣، ٣٤).

فهؤلاء القديسون، وصلوا إلى حالة الصفاء، فصار يمكنهم أن يتعاملوا مع العالم الروحانى، ويمكنهم أن يدخلوا فى علاقات مباشرة مع العالم العلوى، ويمكنهم أن يكشفوا أمورا كان من المستحيل أن يكشفوها لو أنهم كانوا خاضعين لرغبات الجسد وشهواته. فالصوم فى الواقع يحقق للنفس صفاء، ويحقق سهولة فى العبادة، لأنه لجام لرغبات الجسد وميول الجسد الترابية. وهو يخلص الروح من الضغوط والعوائق والشوائب ومن الشغب الذى يحدثه الجسم فى العقل والروح، فيتخلص الجسم وتتخلص الروح من هذا الشغب، ويسير الإنسان فى سهولة للإنطلاق إلى العالم الروحانى.

الصوم والشهوات الشبابية:

للصوم أثره فى الشهوة الجنسية، وغيرها من الشهوات. ويختلف هذا الأثر كما وكيفا، قوة ونوعا، من فرد إلى آخر، بحسب مدة الصوم، وكيفيته، ونوعية الطعام الذى يتناوله بعد إنتهاء مدة الإنقطاع.

فالصوم **أولا** وبالذات هو أعظم تدريب لتقوية الإرادة. وهو أنسب وسيلة، أولية وأساسية، للسيطرة على الرغبات الجامحة، والشهوات القوية والعنيفة، المدمرة لحياة الشباب خصوصا فى «مرحلة المراهقة» حيث تكون الغرائز قد

تفتحت بصورة مفاجئة، يصعب على الشباب المراهق أن يواجهها بنجاح ما لم يستعن بوسائط النعمة، ومن بينها الصوم.

واعلم أن «غريزة الطعام» هى «غريزة الحياة الأولى». كما يقول علماء النفس، وهى أقوى جميع الغرائز بما فيها غريزة الجنس، وغريزة الأبوة والأمومة... فإذا سيطر الإنسان على غريزة الطعام سيطر بالتالى على جميع الغرائز الأخرى. والوسيلة الوحيدة للسيطرة على غريزة الطعام هى الصوم. فالصوم - وهو الامتناع عن الطعام - هو أول وأعظم تدريب لتقوية الإرادة، وللسيطرة على غريزة الطعام. ومن نجح فى هذه الجولة الأولى نجح فى الجولات الأخرى، فى سائر ميادين الغرائز الحيوانية، والأهواء، والميول، والشهوات والرغبات الجسدية واللحمية والحسية...

لذلك فإن القديسين الذين نجحوا فى اقتناء الفضائل، والسيطرة على الخطيئة والميول المنحرفة، والشهوات الأرضية، وسائر العادات الرديئة، مارسوا الصوم عن الطعام كوسيلة أولى وفعّالة، للبلوغ مرحلة مرحلة، إلى حياة النصرة على الخطايا والعادات التى كانت تحاربهم كما تحارب غيرهم من البشر.

ولن تجد قديسا بلغ فعلا حياة القداسة الحقيقية إلا إذا كان قد مارس أولا الصوم عن الطعام، وبممارسة الصوم تغلب على الشهوات التى تحارب النفس، لأنه بالصوم اكتسب الإرادة التى لابد منها للإنتصار على الخطيئة، وتحقيق التوبة الصادقة. إذ أنه فى الصوم يمتنع الإنسان حرا مختارا، وبإرادته، عن تناول الطعام فترة قصيرة أو طويلة، وفى هذا ممارسة لضبط النفس عن الشهوات وتدريب للإرادة، يقويها، ويربيها.

ثانياً إن الصوم يفيد الشباب خصوصا فى ضبط الشهوة الجنسية إذا روعيت فيه القواعد الآتية :

١ ـ الامتناع عن الطعام تماما فترة لا تقل عن تسع ساعات. وحكمة الامتناع التام هى تقوية الإرادة، والسيطرة على غريزة الطعام، وهى كما قلنا غريزة الحياة الأولى.

ثم إن الإمتناع التام عن الطعام يساعد على احتراق الطاقة الزائدة فى الجسم، واستنفاذها فى عمليات الاحتراق الداخلية وبناء الجسم، بحيث لا تبقى طاقة زائدة تثير الجسم وتحرك الإحساسات مع الفكر والبدن بفعل الإثارة نحو الشهوة. إن الإمتناع التام عن الطعام، إذ يستنفذ الطاقة الزائدة، يطفئ الرغبة ويهدئ الشهوة، ويصرف كل طاقات الجسم إلى منفعة الجسم بلا فائض مثير للشهوة.

٢ ـ أن يفطر الصائم بعد الإمتناع التام عن الطعام، على **أطعمة نباتية** خصوصا الخضروات والبقول الخضراء والحبوب والفواكه.

ولذلك حكمته :

لماذا الأطعمة النباتية ؟

فأكل اللحوم بعد فترة جوع طويلة يزيد الرغبة، ويثير الشهوة. ولذلك كانوا فى الأزمنة القديمة يمنعون الأسود والحيوانات المفترسة عن الطعام فترة طويلة، حتى تزداد شهيتها لإفتراس المغضوب عليهم من الشهداء والمجرمين، فلا تبقى من لحمهم ولا من عظامهم، كما ورد فى سفر دانيال، إن الملك داريوس الفارسى «أمر فأحضروا أولئك الرجال الذين وشوا بدانيال، وطرحوهم فى جب الأسود، هم وأولادهم ونساءهم. فلم يصلوا إلى أسفل الجب حتى بطشت بهم الأسود، وسحقت جميع عظامهم» (دانيال ٦ : ٢٤).

أما الأطعمة النباتية فأكلها يناسب الصائم، لأنها تعطى طاقة هادئة غير مثيرة.. ولذلك نجد الفرق واضحا بين الحيوانات آكلات اللحوم، وبين الحيوانات آكلات النباتات، فالحيوانات آكلات اللحوم حيوانات مفترسة متوحشة. ولا ينطبق هذا على الوحوش الكبيرة فقط مثل السباع والنمور والضباع والذئاب، وما إليها.. بل وحتى على الحيوانات الصغيرة مثل الكلاب والثعالب الصغيرة والقطط وما إليها.. بينما أن الحيوانات آكلات النباتات هادئة وأليفة، الكبير منها والصغير.. فالأفيال مع ضخامتها، والبقر، والجاموس، وسائر المواشى والأغنام، والماعز، أليفة ومستأنسة. وحتى الطيور، منها الطيور الجارحة وهى آكلات اللحوم مثل النسر والصقر والحدأة.. بينما أن الطيور آكلات الحبوب والنباتات هادئة وديعة رقيقة، كالحمام، واليمام، والعصافير بأنواعها. وهذا كله بينة على أثر المأكولات النباتية على دم الإنسان، وعلى مناسبتها للصوم، ولتحقيق الفائدة المرجوة منه فى ضبط الشهوات.

المأكولات النباتية للصائمين فى الكتاب المقدس :

وقد كان الامتناع عن اللحوم، ودسم الحيوان، منهج رجال الله الذين مارسوا الصوم. فالنبى داود يقول «ركبتاى ارتعشتا من الصوم، ولحمى هزل عن السمن» (مزمور ١٠٨ : ٢٤).

والنبى حزقيال أمره الرب أن يتناول فى صومه حبوبا ونباتات وأعشابا «وخذ أنت لنفسك قمحا، وشعيرا، وفولا، وعدسا، ودخنا، وكرسنة وضعها فى وعاء واحد، واصنعها لنفسك خبزا، كعدد الأيام... ثلاث مائة يوم وتسعين يوما تأكله. وطعامك الذى تأكله يكون بالوزن.. من وقت إلى وقت تأكله. وتشرب الماء بالكيل.. من وقت إلى وقت تشربه. وتأكل كعكا من الشعير» (حزقيال ٤ : ٩ - ١٢).

أما القمح والشعير والفول والعدس فكلها حبوب معروفة.

أما الدخن، فهو أيضا نوع من الحبوب تغتذى به الطيور، كما يمكن أن يغتذى به الإنسان ولا يزال يستخدم بكثرة فى غربى آسيا وجنوبها، وفى شمال أفريقيا، وجنوب أوربا، وعيدانه تستخدم طعاما للماشية.

وكذلك **الكرسنة** هى نوع من الحبوب، شبيه بالعدس، يزرع كثيرا فى فلسطين وسوريا.

وبالمثل ذكر دانيال عن نفسه فى فترة صومه «أنا دانيال كنت نائحا ثلاثة أسابيع أيام. لم آكل طعاما شهيا، **ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر**، (دانيال١٠: ٢ ، ٣) وكان هو والفتية الثلاثة حنانيا وميشائيل وعزريا يأكلون **القطانى**، ولا يأكلون اللحم (دانيال ١ : ٥، ١٢، ١٦).

والقطانى حبوب تطبخ كالعدس والفول واللوبياء والحمص.

وهذا رد على الذين يطلبون نصوصا من الكتاب المقدس تؤيد ترتيب الكنيسة الأرثوذكسية فى الاكتفاء بالمأكولات النباتية بعد فترة الإنقطاع التام عن الطعام أثناء الأصوام.

٣ ـ يراعى أن تكون المأكولات النباتية بصورة طبيعية، أو قريبة إلى الطبيعة بقدر الإمكان. فالنباتات ذات الأوراق الخضراء كالخص والجرجير والفلفل وما إليها، تؤكل طازجة وغير مطبوخة وكذلك الطماطم والفواكه. أما الحبوب كالقمح والفول والعدس والحمص وما إليها... فتطبخ بالماء. وبالمثل البقول الخضراء كلها تسلق بالماء ولا تقلى بالزيت ويكتفى بعد طبخها بالماء، بأن يصب عليها قليل من الزيت النيئ من غير أن يوضع الزيت على النار.

ولآباء الكنيسة كلام كثير يوجهونه إلى المؤمنين الصائمين حتى يكتفوا فى الصوم بالمأكولات النباتية على صورتها القريبة من الطبيعة بقدر الإمكان، وهو ما يعرف عندهم بالصوم على «الماء والملح» وبذلك ينتفعون إنتفاعا روحيا كاملا من الصوم.

٤ ـ كمية الطعام تكون قليلة، أو فى حدود الإعتدال، لأن كمية الطعام إذا زادت عن حد معقول، يمكن أن تسكر أو ترهق المعدة والأمعاء، مما قد يضر بهدف الصوم.

٥ ـ يمتنع الصائم عن الأطعمة الحريفة ومنها الشطة والمخللات بأنواعها.

٦ ـ يجب أن يكون الصوم مصحوبا بالصلوات، والتأمل فى سير القديسين، والقراءة فى الكتب المقدسة، والكتب الروحية التى تبنى النفس، كما يجب أن تمارس فى أثناء الصوم أعمال الرحمة بالفقراء والمعدمين، وأصحاب الحاجات.

٧ ـ لا غنى للصائم عن ممارسة أعمال التوبة اليومية، وفحص الضمير، والإعتراف بالخطيئة، والتناول من القربان المقدس.

إذا روعيت فى الصوم كل تلك المبادئ والممارسات، جاء الصوم بفوائد جزيلة وحقق الغرض منه، وساعد الشاب على حياة الغلبة والنصرة على الشهوات الجسدية التى تحارب النفس. والإخلال بأى قاعدة منها يقلل من فائدة الصوم، وبالتالى من التغلب بنجاح على شهوة الجنس وغيرها من الحروب الشبابية.

الأطعمة النباتية تقوى ولا تضعف

ولا يفوتنا أن نشير إلى خطأ سائد يروج له بعض الناس، باسم الإشفاق على صحة أبنائهم من الشباب، فيزعمون أن الأطعمة النباتية فى الصوم تضعفهم، وتقلل من نشاطهم الفكرى.

ونحن نريد أن نؤكد خطأ هذا الزعم، ونؤكد على عكس هذه المخاوف.. يساندنا فى هذا التوكيد جميع النباتيين الذين ينادون بحق أن الإنسان نباتى بطبعه، وأنه خلق نباتياً، وأنه لو عاش نباتياً كل أيام حياته لصار أكثر صحة وقوة مما هو الآن. ومن عاش نباتياً لا تهدده الشيخوخة العقلية كما تهدده إذا أكل اللحوم.

ومن المغالطات السائدة عند أنصار اللحوم، أنهم يخلطون الشدة والقوة. لكن الحقيقة أن اللحوم تزود الإنسان بالشدة، وأما النباتات فتزوده بالقوة والصحة.

فالثور رمز القوة ومع ذلك فهو من آكلات النباتات. والفيل أقوى من الأسد. ولئن كان الأسد يتميز بالشراسة والشدة، لأنه ونظائره من الوحوش من آكلات اللحوم. لكن الفيل أقوى من الأسد، وأكثر منه ذكاء. إن الفيل إذا قبض بخرطومه على جسم الأسد قتله بعد أن يهشم أضلاعه وعظامه. والقردة العليا مثل الغوريلا والشامبانزى هى من آكلات النبات، ولا تأكل اللحوم. ومع ذلك فالمعروف أن قوة الواحد منها تساوى قوة عشرة رجال.

ولقد جاء فى الكتاب المقدس ما يؤيد دعوى النباتيين، فى أن النباتات تزود الإنسان بالصحة والقوة.

فورد فى سفر دانيال النبى، أن النبى دانيال والفتية الثلاثة حنانيا وميشائيل وعزريا، طلبوا أن لا يأكلوا من أطايب الملك نبوخذ نصر ملك بابل، ولا بخمر مشروبه، وأن يستبدلوا بطعامهم القطانى - وهو حبوب تطبخ كالعدس والفول واللوبياء والحمص. كما قلنا ،فقال رئيس الخصيان لدانيال: إنى أخاف سيدى الملك الذى عين طعامكم وشرابكم. فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم فتديّنون رأسى للملك. فقال دانيال لرئيس السقاة الذى ولاه رئيس الخصيان على دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا. جرب عبيدك عشرة أيام، فليعطونا القطانى لنأكل، وماء لنشرب، ولينظروا إلى مناظرنا أمامك، وإلى مناظر الفتيان الذين يأكلون من أطايب الملك، ثم اصنع بعبيدك كما ترى. فسمع لهم هذا الكلام، وجربهم عشرة أيام، وعند نهاية العشرة الأيام، ظهرت مناظرهم أحسن وأسمن لحماً، من كل الفتيان الآكلين من أطايب الملك. فكان رئيس السقاة يرفع أطايبهم وخمر مشروبهم، ويعطيهم قطانى. أما هؤلاء الفتيان الأربعة **فأعطاهم الله معرفة وعقلاً فى كل كتابة وحكمة وكان دانيال فهيماً بكل الرؤى والأحلام،** (دانيال ١: ٨ - ١٧).

الصوم فى الإنجيل

قال رب المجد يسوع المسيح

،متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فإنهم يقطبون أساريرهم لكى يبدوا للناس صائمين. الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم. أما أنت فمتى صمت فادهن رأسك وأغسل وجهك لا لكى تبدو صائماً للناس، بل لأبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفية يكافئك علانية، (متى ٦: ١٦ - ١٨).

وقد أظهر الرب يسوع أهمية الصوم مع الصلاة فى طرد الشياطين، وفى حربنا ضد القوات النجسة، فقال: إن هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم، (متى ١٧: ٢١) ، (مرقس ٩: ٢٩).

ولقد تحدثت البشائر الأربع عن ممارسة الرب يسوع ذاته لفضيلة الصوم، مما يشهد بأهمية الصوم وضرورته ونفعه للمؤمن العابد السائر فى طريق الله، كما كشفت فى نفس الوقت عن أهميته أيضاً بالنسبة لمن حصلوا على المواهب الروحية السماوية ليزدادوا بالصوم نموا فى التقوى والروحانية وتقدماً فى سلم الفضائل، بما يتيحه الصوم للروح الإنسانية من سهولة فى العبادة، ويسر فى الصلاة والتأمل وسكون الحواس والإحساسات اللحمية والشهوانية، وما يعرف عند الروحانيين بشغب الجسم، وما قد يبلغ بالصائم إلى المكاشفات الروحانية. قال الإنجيل «ثم صعد يسوع بواسطة الروح إلى البرية لكى يجربه ابليس. فصام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، وأخيراً جاع» (متى ٤: ١، ٢) «وكان حينذاك مع الوحوش، وكانت الملائكة تخدمه» (مرقس ١: ١٢، ١٣)، (لوقا ٤: ١، ٢).

أما عن التلاميذ والرسل، فقد ورد فى الإنجيل أن حاجتهم إلى الصوم ستزداد خصوصاً بعد صعود المسيح إلى السماء وذلك بما صرح به الرب يسوع «ثم جاء إليه تلاميذ يوحنا قائلين: لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، أما تلاميذك فلا يصومون؟ فقال لهم يسوع:.... ستأتى الأيام حين يؤخذ العريس منهم، فعندئذ يصومون» (متى ٩: ١٤، ١٥) ، (مرقس ٢: ١٨ - ٢٠)، (لوقا ٥: ٢٣ - ٣٥).

وفعلاً لقد صام الأباء الرسل خصوصاً بعد صعود المسيح، وهو الصوم المعروف بصوم الرسل الذى يقع فى اليوم التالى لعيد حلول الروح القدس على التلاميذ، فى يوم الخمسين لقيامة المسيح أو بعد عشرة أيام من صعوده المجيد إلى السماء. (أنظر سفر أعمال الرسل (١٣:٢) ، (٢٧: ٩)).

الصوم فى العهد الجديد:

وأما إذا كان المقصود بالإنجيل هو أسفار العهد الجديد إجمالاً، فقد جاء ذكر الصوم فى غير موضع باعتباره فضيلة روحية يمارسها الأتقياء بروح التعبد لله. من ذلك فضلاً عما أوردناه سابقاً، ما نص عليه فى إنجيل لوقا (٢: ٣٧) ثم لوقا (١٨: ١٢) ثم (أعمال ١٠: ٣، ٣٠) ، (أعمال ١٠:٩، ١٠) مما مارسه الرسل وغيرهم من أتقياء المؤمنين.

وما رواه أعمال الرسل عن صوم الرسل مع الصلاة عند وضع أيديهم على المرشحين للرسامة الكهنوتية لدرجة الأسقفية (أعمال الرسل ١٣: ٣) ولدرجة القسيسية (أعمال ١٤: ٢٣).

وما رواه أيضاً سفر الأعمال عن الصوم من أجل النجاة من أخطار السفر (أعمال ٢٧: ٢١).

وفضلاً عن ذلك فقد عدد الرسول بولس كيف كان يضطر بسبب متاعب خدمته الرسولية إلى الأسهار مع الأصوام (كورنثوس الثانية ٦: ٥) ، (كورنثوس الأولى ٤: ١١) وفى موضع آخر يقرر أن هذه الأصوام كانت كثيرة ،فى أصوام مراراً كثيرة، (كورنثوس الثانية ١١: ٢٧).

على أن الرسول بولس ينصح بالصوم أيضاً لسائر المؤمنين من غير الخدام أيضاً، صوماً تعبدياً يتفرغ له المؤمن بالصلاة، والمتزوجون بالذات بالإمتناع عن المعاشرات الزواجية (كورنثوس الأولى ٧: ٥) كلفاً بالعفاف وتدريباً للحواس الروحية، للسيطرة على الشهوات الجسدية ولذة الجماع الجنسى.

وإذن فقد أبان العهد الجديد:

أولاً - أهمية الصوم وضرورته وفائدته لحياة التعبد والتقوى من حيث هو ركن هام من أركانها وعمود أساسى من أعمدتها الثلاثة. وعلى ذلك فلا قيام للحياة الروحية بدونه، ولا يمكن بالتالى أن نتصور قديساً بلغ حياة القداسة من غير الصوم كما **لا نتصور قداسة بغير صلاة وبغير رحمة بالمساكين.**

ثانيا - أهمية الصوم وضرورته وفائدته للنمو الروحانى والتقدم فى مراقى الفضيلة، ولتحقيق فعاليات المواهب الروحية فى النفس والروح والجسد. ولهذا صام المسيح بعد حلول الروح القدس عليه بعد عماده، وصام الرسل بعد حلول الروح القدس عليهم فى يوم الخمسين. ولنفس الغرض يصوم أصحاب الدرجات الكهنوتية بعد نيلهم لسر الدرجة بوضع اليد الرسولية عليهم وحلول الروح القدس عليهم.

ثالثا - أهمية الصوم وضرورته وفائدته فى طرد الشياطين. وفى تحقيق الانتصار فى حربنا ضد إبليس وضد كل قوات الشر، وللخلاص من كل ضيق فى الجسد.

رابعا - أهمية الصوم وضرورته وفائدته عند البدء فى كل عمل هام، ولا سيما عند استدعاء الروح القدس وطلب إحدى المواهب الروحية. وممارسة خدام الله ووكلاء أسراره الإلهية المقدسة لطقوس الأسرار المقدسة. فى المعمودية أو المسحة المقدسة (الميرون) أو القربان المقدس، أو التوبة أو مسحة المرضى أو الزيجة، أو الكهنوت. فعند ممارسة جميع هذه الأسرار يمارس الكاهن الصوم ولا يتقدم إلى طقوس هذه الأسرار من غير صوم - وكذلك المؤمن القابل لهذه الأسرار يصوم أيضاً، ولا يتقدم لنيل هذه الأسرار إلا صائماً.

نوعا الصوم فى العهد الجديد:

والواضح من أسفار العهد الجديد أن الصوم نوعان:

صوم خاص، وصوم عام.

أما الصوم الخاص: فهو صوم يمارسه شخص واحد حتى لو أصبح فيما بعد صوماً عاماً. ومثاله صوم المسيح له المجد بعد عماده، لمدة أربعين يوماً، وصوم القديس بطرس الرسول (أعمال ١٠: ٩، ١٠) وصوم كورنيليوس (أعمال ١٠: ٣٠) وحنة بنت فنوئيل (لوقا ٢: ٣٧)، وصوم القديس بولس مراراً كثيرة (٢. كورنثوس ٦: ٥)، (١١: ٢٧) وصوم من يطرد شيطاناً من نفسه أو من آخر (متى ١٧: ٢١)، (مرقس ٩: ٢٩) كقول السيد المسيح «إن هذا الجنس لا يخرج إلا بالصلاة والصوم).

وأما الصوم العام: فهو صوم الجماعة أو الكنيسة كلها، ومثله صوم الرسل بعد حلول الروح القدس عليهم فى يوم العنصرة، وصومهم لإستدعاء

الروح القدس فى رسامة القديسين بولس وبرنابا فى الدرجة الأسقفية: وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال لهم الروح القدس: افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه. فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا أيديهم عليهما ثم أطلقوهما (أعمال الرسل ١٣: ٢، ٣) أى أن سفر الأعمال يتحدث هنا عن صومين عامين للرسل:

الصوم الأول: وهو تعبدى «بينما هم يخدمون الرب ويصومون»

والصوم الثانى: لإستدعاء موهبة الروح القدس للرسامة الكهنوتية: «فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا أيديهم عليهما».

ومثل الصوم العام أيضاً صوم الرسولين بولس وبرنابا مع الكنيسة فى كل بلاد درية ولسترة وإيقونية وأنطاكية لرسامة الكهنة حيث «أقاما لهم قسوساً فى كل كنيسة وصليا بأصوام واستودعاهم الرب الذى آمنوا به» (أعمال ١٤: ٢١ - ٢٤).

من الذى أمر بالأصوام العامة؟

وأما تحديد الأصوام العامة بالصورة التى نعرفها فى كنيسة العهد الجديد فقد كان تدبيراً إلهياً رسولياً، رسمه الرب مع رسله الذين وكل إليهم تدبير شئون الكنيسة والمؤمنين من بعده بإعتبارهم وكلاءه ووكلاء أسراره. وقد ذكر سفر الأعمال إجتماعات الرب يسوع بتلاميذه طوال الأربعين يوما التى امتدت بين قيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماوات، وفيها كان «يظهر لهم مدة أربعين يوما ويكلمهم بما يختص بملكوت الله» (أعمال ١: ٣) ويبدو ذلك

واضحاً مما جاء فى الدسقولية وهى تعاليم الرسل «ولما قام (رب المجد) من بين الأموات ظهر أولا لمريم المجدلية.. وبعد ذلك ظهر أيضاً لنا نحن التلاميذ، وكنا يومئذ هاربين خوفاً من اليهود ونحن فى السر نبحث ونطلب تعاليمه. وتقدم إلينا بأن نصوم هذه الستة الأيام التى للفصح، ولأجل النفاق والخطيئة التى فعلها اليهود. وأمرنا أن نحزن فيها وننوح بدموع على هلاكهم، ... وتقدم إلينا أن نصوم رابع السبوت (= يوم الأربعاء) ويوم الجمعة. ونستريح من الصوم فى اليوم السابع وقت صياح الديك، ونصوم ذلك السبت الواحد (=السبت الكبير). لأن صانع كل البرية كان فيه مدفوناً فى القبر..» (الدسقولية الباب ١٨).

ومن هذا النص يتضح أن الأمر بالأصوام العامة قد بدأ برب المجد يسوع المسيح إلى تلاميذه ورسله القديسين، هذا فضلاً عما أمر به الرسل أنفسهم باعتبارهم وكلاءه ووكلاء أسراره. ومن بين الأصوام التى أمر بها الرسل: صوم الأربعين المقدسة، وأسبوع الآلام، والأربعاء والجمعة من كل أسبوع فيما عدا الخمسين المقدسة (الدسقولية الباب ٣١) وقد جاء صريحاً قولهم «نأمركم أن تصوموا كل يوم أربعاء وكل يوم جمعة» (الدسقولية باب ٣١).

وجاء فى قوانين الرسل: «أيما أسقف أو قس أو شماس أو ايبودياكن أو أناغنسطس أو مرتل لا يصوم صوم الأربعين المقدس الذى للفصح، وصوم يومى الأربعاء والجمعة، فليقطع، ما خلا إذا امتنع لأجل مرض جسدى. وإذا كان عامياً فليفرز» (قانون ٦٩).

وجاء فى القانون السادس والستين من قوانين الرسل: «أيما اكليروس وجد صائماً يوم الأحد أو السبت ما خلا السبت الواحد وحده فقط، فليقطع».

الأصوام العامة ترتيب رسولى:

مما تقدم يتضح أن الأصوام العامة فى الكنيسة ترتيب رسولى، رسمه السيد المسيح ومعه تلاميذه ورسله الأطهار، وقد صار منصوصاً عنه ومسجلاً فى الدسقولية وهى تعاليم الرسل، ثم فى القوانين الرسولية، وبعد ذلك فى المجامع المسكونية والإقليمية.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن جميع الكنائس الرسولية المعروفة فى العالم المسيحى جميعها تحترم الأصوام العامة. وهذا ذاته دليل على أن هذه الأصوام تسليم رسولى قديم، ومارسته الكنيسة المسيحية منذ العصور الرسولية الأولى قبل الإنقسام - الذى حدث فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ - وهى مجمعه كلها على صوم الأربعين المقدسة، وأسبوع الآلام، وصوم الأربعاء والجمعة من كل أسبوع، وصوم الميلاد، وصوم الرسل، وصوم العذراء مريم.

وأما صوم ثلاثة الأيام السابقة على صوم الميلاد، فقد أضيف على صوم الميلاد المعروف فى الكنائس الرسولية، منذ القرن العاشر للميلاد تخليداً لحادثة نقل جبل المقطم التى تمت فى عهد الأنبا ابرآم البابا الثانى والستين فى زمن الخليفة المعز الفاطمى، وإذن ففى هذه الثلاثة الأيام قد انفردت كنيستنا عن سائر الكنائس الرسولية، لأن حادثة جبل المقطم حادثة فريدة لم تحدث فى غير كنيستنا. على أن صوم هذه الثلاثة الأيام يعتبر أيضاً صوماً عاماً لأن

الكنيسة قد فرضته على جميع الإكليروس والشعب، ومثلها الصوم المعروف بصوم يونان، فلقد بدأ تاريخه فى كنيستنا فى القرن العاشر للميلاد أيضاً. وقد كان قبل ذلك صوماً عاماً بالنسبة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية. ففى القرن العاشر تقرر بالنسبة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية أن تشترك معنا فى صوم جبل المقطم، وبالنسبة للكنيسة القبطية أن تشترك مع الكنيسة السريانية فى صوم يونان. وكل من الصومين مدته ثلاثة أيام.

الأصوام العامة السبعة:

وعلى ذلك صارت الأصوام العامة المقررة فى كنيستنا الأرثوذكسية على النحو الآتى:

١- صوم الأربعين المقدسة، ومدته أربعون يوماً ينتهى بما يعرف بجمعة ختام الصوم، ويتقدمه أسبوع يعرف بمقدمة الصوم الأربعينى.

٢- صوم أسبوع الآلام وينتهى بعيد القيامة المجيد.

٣- صوم يومى الأربعاء والجمعة من كل أسبوع فيما عدا أيام الخمسين المقدسة.

٤- صوم الرسل ويبدأ يوم الأثنين التالى لأحد العنصرة وينتهى بعيد استشهاد الرسولين بطرس وبولس ويقع فى ٥ من أبيب.

٥- صوم الميلاد ومدته أربعون يوماً، أضيف عليها ثلاثة أيام تخليداً لحادثة نقل جبل المقطم فى القرن العاشر للميلاد وينتهى بعيد الميلاد المجيد.

٦- صوم العذراء- ومدته ١٥ يوماً تنتهى بعيد صعود جسد العذراء إلى السماء، ويقع فى ١٦ من مسرى.

٧- صوم يونان ومدته ٣ أيام وينتهى بما يعرف بفصح يونان.

أضف إلى هذه الأصوام السبعة العامة صوم البرامون لليوم السابق على عيدى الغطاس والميلاد- ويعامل معاملة الصوم الكبير، ومدته عادة يوم واحد، وقد يصير يومين إذا وقع العيد يوم أحد، ويصير ثلاثة أيام إذا وقع العيد يوم اثنين.

لماذا تُسمى بعض الأصوام بأسماء الرسل والعذراء، ويونان؟

إن الصوم المسمّى بصوم الرسل، سمى كذلك لأن الرسل هم الذين صاموه بعد حلول موهبة الروح القدس عليهم، ونحن نصومه من بعدهم تمثلاً بهم، وتعبداً لله.

كذلك صوم العذراء يسمى كذلك، لأنه ينتهى بعيد صعود جسدها إلى السماء. وقد بدأه الرسل، وفى نهايته بر الرب بوعده لهم بأن أراها الرب لهم فى الجسد مرة أخرى (السنكسار تحت ١٦ من مسرى).

وأما صوم يونان، فسمى كذلك للعلاقة الرمزية بين يونان النبى الذى ظل فى جوف الحوت ثلاثة أيام ثم قذفه الحوت، وبين ربنا يسوع المسيح الذى دفن فى القبر ثلاثة أيام ثم قام حياً من بين الأموات فى اليوم الثالث. فمع أن الذين صاموا هم أهل نينوى فرحمهم الرب ورفع غضبه عنهم، إلا أنه غلب تسمية هذا الصوم بصوم يونان نظراً للعلاقة الرمزية بين يونان وربنا يسوع ،لأنه كما

مكث يونان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى جوف الحوت، كذلك يمكث ابن الإنسان ثلاثة أيام وثلاث ليال فى جوف الأرض. إن أهل نينوى سيقومون عند الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم إذ أنذرهم يونان تابوا، وهوذا أعظم من يونان هنا. (متى ١٢: ٤٠، ٤١)، (لوقا ١١: ٢٩، ٣٠) ولذلك يسمّى فطر هذا الصوم بـ «فصح يونان» تشبها بـعيد القيامة المجيد الذى يسمى أيضاً «عيد الفصح» المسيحى.

إنما جميع الأصوام، تعبدية لله وحده «للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» (متى ٤: ١٠)، (لوقا ٤: ٨)، (التثنية ٦: ١٣)، (١٠: ٢٠).

لقد تسمت شريعة الله فى العهد القديم بـ «شريعة موسى» (١. الملوك ٢: ٣)، (نحميا ٨:١)، (دانيال ٩: ١١)، (ملاخى ٤: ٤)، (لوقا ٢: ٢٢) لأن موسى النبى الكليم هو الذى تلقاها من الله. وتسمى الهيكل بـ «هيكل سليمان» لأن سليمان الملك هو الذى بناه خدمة لله وعبادة له تعالى (الملوك الأول ٦: ٣، ٣٨) وتمييزاً له عن «هيكل زربابل» أى بيت الله الذى بنى فى عهد زربابل، وعن «هيكل هيرودس» أى هيكل الله الذى كان ترميمه فى عهد هيرودس أغريباس الثانى.

الصدقة أو العطاء أو فعل الرحمة

إن المسيحى مطالب أن يعبر عن حبه لله وللقريب بالعطاء والصدقة والرحمة للفقراء وأصحاب الحاجات، ولأعمال البر المتنوعة العامة والخاصة.

إنه مطالب بالعشور والبكور والنذور والقرابين.

والعشور جمع العشر من كل شيء مادى وعينى.

جاء فى الكتاب المقدس قوله «هاتوا جميع العشور إلى بيت الخزانة ليكون فى بيتى طعام. وجربونى بذلك قال رب الجنود ألا أفتح لكم كوى السماء وأفيض عليكم بركة حتى لا توسع. وأزجر لأجلكم الآكل فلا يفسد لكم ثمر الأرض ولا يكون لكم الكرم عقيماً فى الحقل، قال رب الجنود» (ملاخى ٣: ١٠، ١١).

وأما **البكور** فهى أوائل نتاج النبات والحيوان والمال «باكورة بيدرك ومعصرتك لا تؤخرها.. وكذلك تصنع ببقرك وغنمك» (الخروج ٢٢: ٢٩، ٣٠).

وأما **النذور** فعنها يقول الكتاب المقدس «إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه. لأن الرب إلهك يطالبك به فتكون عليك خطيئة. وأما ما خرج من شفتيك فاحفظه واعمل كما نذرت للرب إلهك» (التثنية ٢٣: ٢١، ٢٣).

وأما فى العهد الجديد، فقد علمنا ربنا يسوع المسيح أن نبذل لله نفوسنا قبل أموالنا. وقال بكلمات قاطعة حاسمة «فإنى أقول لكم إن لم يزد بركم على بر الكتبة والفريسين لن تدخلوا ملكوت السماوات» (متى ٥: ٢٠) ومعنى هذا أنه لم يطالبنا فقط بأن نزيد على ما كان يصنعه أتقياء العهد القديم، بل أنه اعتبر هذه الزيادة شرطاً لدخول ملكوت السماوات، بدونه لا يسمح لأحد أن ينعم بالنعيم الأبدى فى ملكوت الله.

على أنه علمنا أيضاً أن هناك طريقاً أفضل، وهو طريق الكمال أو مسلك الكمال وهو طريق أخص للراغبين فيه، كشف عنه مخلصنا فى حديثه إلى الشاب الغنى. قال له سيدنا: «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك، وأعط الفقراء فتقتنى لك كنزاً فى السماء، وتعال اتبعنى حاملاً الصليب» (متى ١٩ ٢١) ، (مرقس ١٠: ٢١).

وقد لبى هذه الدعوة جميع المؤمنين فى العهد الجديد «وكان جميع المؤمنين معاً، وكان كل شىء مشتركاً بينهم. وكانوا يبيعون أملاكهم وأمتعتهم، ويوزعونها على الجميع، على حسب حاجة كل واحد» (أعمال الرسل ٢: ٤٤، ٤٥) «وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول عن شىء يملكه أنه خاص به، بل كان لهم كل شىء مشتركاً. فإنه لم يكن فيهم محتاج لأن كل الذين كانوا يملكون ضياعاً أو بيوتاً كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويلقونها عند أقدام الرسل، فيوزع لكل واحد على حسب إحتياجه» (أعمال الرسل ٤: ٣٢ ـ ٣٥).

ولما كانت هذه الإشتراكية المسيحية إشتراكية اختيارية، فقد صار تطبيقها يختلف من مسيحى إلى آخر حسب درجة روحانيته وتقواه. وقد عاش مسيحيون فى كل العصور ممن أعطوا كثيراً، وممن لو أمكن لقلعوا عيونهم وأعطوها (غلاطية ٤: ١٥). من أجل الله ومن أجل الخير العام.

ولما كانت المسيحية بطبيعتها ديناً يقوم على الإرادة الخيرة ولا يستند إلى القوة الجبرية، فقد كادت إشتراكيتها الإجتماعية أن تنحصر فيما بعد القرن

الأول فى دائرة الخدام ورجال الدين (متى ١٩ : ٢٧) والرهبان. فقد حدثنا التاريخ عن المدرسة اللاهوتية الأولى بالأسكندرية أن طلبتها عاشوا حياة إشتراكية، وكان لهم جميعاً صندوق واحد ينفقون منه جميعاً على حسب احتياج كل واحد منهم. وكذلك عاشت إلى اليوم جماعات الرهبان. والمعروف عن الأنبا باخوم أو باخوميوس أنه صاحب نظام الشركة بمعنى أن يعيش جميع الرهبان فى مجتمعهم الصغير داخل أسوار الدير عيشة إشتراكية بالمعنى الدقيق، فهم يتنازلون أولاً عن جميع ممتلكاتهم للدير، ثم يأكلون معاً ويصلون معاً ويصومون معاً، وينفقون من صندوق عام للدير ينفق منه على جميع الإحتياجات العامة والخاصة.

من هذا كله يتضح أننا لسنا مطالبين كمسيحيين، بالعشور فقط، ولا بالعشور والبكور والنذور والقرابين والتقدمات فحسب، ولكننا من أجل الكمال المسيحى مطالبون بهذا كله، وبأكثر من هذا كله. على أن نبذل عن رضى واختيار، محبة فى الله وفى خير القريب، ومن أجل الخير العام، بذلاً من غير حدود، بذلاً له حده الأدنى ولكن ليس له حد أعلى. أما حده الأدنى فهو العشور والبكور والنذور والقرابين والتقدمات، وهى الأمور التى أمرت بها الشريعة فى العهدين القديم والجديد. وأما حده الأعلى فهو حد يتصاعد بتصاعد المسيحى فى درجات الكمال المسيحى، التى يتدرج معها فى مستويات التجرد إلى أن يبلغ التجرد الكامل الذى بلغه ويبلغه الكثيرون من الزهاد والنساك والسواح.

وفيما يتصل بالعشور نريد أن نقرر:

من جهة المبدأ ينبغى للمسيحى أن يوجه العشور إلى ثلاثة مصارف أساسية:

أولا: إذا كان بعض أقاربه الأقربين فى عوز، وجب أن يقدم لهم ما هم فى حاجة إليه. وذلك عملاً بالمبدأ الإنجيلى القائل: «وإذا كانت أرملة لها بنون أو حفدة، فليتعلموا أولاً أن يبروا أهل بيتهم، وأن يفوا ما عليهم لوالديهم، لأن هذا صالح ومقبول أمام الله. وإذا كان أحد لا يعتنى بذويه، ولا سيما أهل بيته، فقد أنكر الإيمان، وهو شر من غير المؤمن» (١ . تيموثيوس ٥: ٤، ٨).

ثانيا: يجب أن يقدم شيئاً من العشور، أو نصيباً منها إلى الكنيسة ونعنى بالكنيسة ـ أولاً ـ الكنيسة المحلية، التى هو عضو فيها، ثم الكنيسة العامة بعد ذلك، للإسهام فى النفقات العامة والمشروعات العامة، ومنها رواتب الخدام، وعمارة الكنيسة وتجديدها وترميمها وتزيينها وصيانتها ولوازمها.

ثالثا: خدمة الفقراء وطلاب الحاجات:

وفى سبيل خدمة الفقراء وأصحاب الحاجات، ربما يكون من الأنسب والأصلح أن يقدم الإنسان عطاءه لهيئة عامة مسئولة يمكنها أن تتقصى عن المحتاجين الحقيقيين ممن هم أولى بالعطاء.

ولعل الملاجىء ودور الإيواء وغيرها من المؤسسات الخيرية والإجتماعية هى أبرز الهيئات المسئولة التى يمكن أن يطمئن إليها الإنسان.

على أننا نضيف إلى ما سبق أمرين:

الأمر الأول: أن العشور هى الحد الأدنى المطلوب من المسيحى، وعلى المسيحى أن يزيد بره على العشور كلما أمكنه ذلك، فقد قال المسيح له المجد: «إن لم يزد بركم على بر الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السموات» (متى ٥: ٢٠).

الأمرالثانى: أن العشور يختلف نذرها من إنسان إلى آخر، على حسب دخله، وبالتالى يمكنه أن يضيف إلى العشور بنسبة الفائض عنده.

فمثلاً رجل فقير له دخل فى حدود عشرة جنيهات، يصير العشر المطالب به لله هو جنيه واحد، وليس له للإنفاق على إحتياجاته من طعام وشراب ومسكن وملابس إلا تسعة جنيهات وهى قليلة جداً، خصوصاً فى أوقات الغلاء. ورجل آخر راتبه مائة جنيه، يبقى له بعد دفع العشور مبلغ تسعين جنيهاً. وثالث دخله ألف جنيه يصير له بعد دفع العشور مبلغ تسعمائة جنيه. وهكذا كلما زاد الدخل زاد تبعاً له الفائض الذى يمكنه أن يتصرف فيه للإنفاق على احتياجاته واحتياجات عياله، وبالتالى يمكنه أن يزيد على العشور مبلغاً آخر - على حسب أريحيته - وطبقاً لما يمليه عليه ضميره وشعوره للإنفاق على أعمال الخير والبر والمعروف، للفقراء وللصالح العام.

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

المبادىء المسيحية في مجال التطبيق العلمي

للمتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمي

منشورات أبناء الأنبا غريغوريوس

المبادئ المسيحية
فى مجال التطبيق العملى

بقلم
المتنيح الأنبا غريغوريوس
أسقف عام
للدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية
والبحث العلمى

الكتاب : المبادئ المسيحية فى مجال التطبيق العملى

المؤلف: المتنيح الأنبا غريغوريوس

إعداد : الإكليريكى منير عطية

الناشر : مكتبة المتنيح الأنبا غريغوريوس - دير الأنبا رويس بالعباسية مصر

ت: ٦٨٢٤٩٦٢ - ٤٨٨٢٥٢٢

الغلاف : الفنان عادل لبيب

المطبعة: شركة الطباعة المصرية - العبور ت: ٦١٠٠٥٨٩

الجمع : شركة فاين للطباعة والتوريدات ت: ٤٨٢٠٩٠٣

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢١٢٤٥ / ٢٠٠٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف والناشر

المبادىء المسيحية
فى مجال التطبيق العملى

يشكو بعض الناس من أن المسيحية ديانة خيالية، أو على أقل تقدير، ديانة مثالية لا تتفق مع واقع الحياة لأنها تتطلب مستوى أخلاقياً أعلى من المستوى الذى يمكن أن يجده أو يمارسه الناس فى الواقع.

وهذا الكلام ليس جديداً ولكن بين وقت وآخر تظهر اتجاهات من هذا القبيل. فلقد مرت بريطانيا مثلاً فى القرن الخامس للميلاد بموجة انحلال أخلاقى، وجعل الناس فى هذا الوقت يظنون أن المبادئ المسيحية مبادئ مستحيلة، مبادئ غير ممكنة، مبادئ عالية على مستوى الإنسان، ولذلك أمسى الناس فى بريطانيا، فى القرن الخامس، فى حالة يأس عن البلوغ إلى المستوى الذى تتطلبه المسيحية فى أخلاقياتها. قالوا أن الكمال لله، والكمال غير ممكن للإنسان. يقول مخلصنا «فكونوا إذن كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات كامل» (متى ٥: ٤٨)، ولكن من مِن الناس يمكنه أن يبلغ إلى هذا المستوى العظيم؟

وهذا هو الذى دعا بيلاجيوس الراهب البريطانى، أن يندفع فى مبدأ الأمر بغيرة مسيحية ليعلّم الشعب فى ذلك الزمان، أن الكمال بالنسبة للإنسان غير مستحيل، وأنه لو لم يكن فى مقدور الإنسان أن يبلغ الكمال لما كان الله يطالب الإنسان بالكمال، وإلا فإننا نكون قد إتهمنا الله إما بالجهل بطبيعتنا، أو بالظلم للإنسان، لأنه يتطلب منه شيئاً يعلم تعالى أنه فى غير مقدور الإنسان أن يصل إليه. ولكن بيلاجيوس اشتط فيما بعد ووقع فى هرطقة نتيجة مغالاته فى قدرة

الإنسان على البلوغ إلى الكمال، لدرجة أن أنكر دور النعمة فى حياة الإنسان، كما أنكر انتشار الخطيئة الأصلية، وأنكر الفساد فى طبيعة الإنسان، وأنكر بالتالى حاجة الأطفال إلى المعمودية.

على كل حال كان هذا مثلاً على تفكير الإنسان أو مجموعة من الناس فى وقت ما من الأوقات ممن يرون فى المسيحية أنها تتطلب مثلاً أعلى يصعب على الإنسان أن يبلغ إليه.

بل وماذا نقول؟ نقول حتى القديس أوغسطينوس قبل أن يصبح مسيحياً سمع عن المسيحية من أمه القديسة مونيكا، ولكنه هو أيضاً - وكان مغلوباً من شهواته ونزواته وطياشته الشبابية - كان يرى أن المسيحية ديانة غريبة وعجيبة ومستحيلة، وأنها ضربت فى الخيال بعيداً، وأنها تتطلب مستوى فى الأخلاق ليس فى مقدور الإنسان أن يصل إليه، أو على الأقل، أن أوغسطينوس اعترف أنه هو شخصياً يستحيل أن يكون يوماً من الأيام مسيحياً لأنه - وقد عرف طبيعته وعرف أنه مغلوب من شهواته ونزواته كشاب - يرى أنه من المستحيل عليه أن يكون يوماً من الأيام مسيحياً، ولذلك فقد أبغض المسيحية فى مبدأ الأمر واعتبرها شيئاً غير ميسور؛ لا يقدر أحد على الأرض أن يبلغ إليه. على أن أوغسطينوس فيما بعد أدركه تطور كبير فى حياته النفسية، وفى إدراكاته الروحية، بحيث أنه - فيما بعد - دخل إلى المسيحية فى عمق كبير وفرح عظيم، ورأى فيها أنها الديانة التى غفل عنها زماناً طويلاً من حياته، وأنها الديانة الوحيدة التى ترفع مستوى الإنسان من دون أن تتطلب منه شيئاً فى غير مقدوره.

وإلى زماننا هذا نجد من وقت إلى آخر أناساً من البشر يرددون هذه العبارات، ويرددون معها الآهات والأنات. بل وأحب أن أقول إننى سمعت هذا أيضاً حتى من بعض شبابنا المتدين الذى تربى بين أحضان الكنيسة وفى مدارس التربية الكنسية، وكان من بين المبرزين فى الحياة الروحية أيام أن كان طالباً فى دور العلم، وطالباً فى مدارس التربية الكنسية أو خادماً فيها، ثم أصبح موظفاً أو دخل فى معركة الحياة العملية وبدأ أن يكون له زوجة وأولاد، وبدأ أن يكون رئيساً أو مرؤوساً فى عمل ما من الأعمال، فصار يشكو من الهوة التى أخذت تتسع شيئاً فشيئاً بين المستوى الذى تعلّمه فى الكنيسة وفى مدارس التربية الكنسية وبين المستوى الذى أمسى يرى أن الحياة العملية تتطلبه، وبدأت الشقة تتسع شيئاً فشيئاً بين المستويين.

على أن بعضاً من شبابنا كان أصرح من البعض الآخر، فالبعض يشكو فى صراحة. أما البعض الآخر فكظم غيظه فى نفسه، وربما لا يستطيع أن يفصح عما فى خبراته الجديدة، فانصرف عن الحياة الروحية بالكلية، وبدأنا نرى بعض الشخصيات الروحية تختفى من محيط الخدمة، أو من محيطنا الكنسى بصفة عامة، بعد أن أدركوا أن المستويات التى تعلموها، لم تعد فى نظرهم الجديد صالحة للحياة العملية التى أصبحوا فعلاً يصطدمون بها فى الواقع الحى.

من هنا ندرك أهمية الموضوع الذى نتكلم عنه «المبادئ المسيحية فى مجال التطبيق العملى». ولربما كان لبعض الخدّام مسئولية واضحة فى هذا الخلف وفى هذه الهوة التى بدأت تنشق أمام الشباب وأمام الناس، بين المثل العليا التى تتطلبها المسيحية وبين واقع الحياة العملية، «والأعمى إذا قاد أعمى سقطا كلاهما فى حفرة» (متى ١٥ : ١٤)، (لوقا ٦ : ٣٩).

من أجل هذا رأينا أن نكتب فى بعض المبادئ المهمة لنحدد موقف المسيحية منها، كما علّم بها المسيح مخلصنا، ورسله القديسون وآباء الكنيسة المعتبرون أنهم أعمدة.

المغفرة وحدودها فى المسيحية

المغفرة وحدودها فى المسيحية. كيف نغفر، وإلى أى مدى يمكن أن نغفر؟ نحن نعلم أن مخلصنا يقول فى الإنجيل «لأنكم إن غفرتم للناس زلاتهم، فإن أباكم السماوى يغفر لكم أنتم أيضاً زلاتكم. أما إن لم تغفروا للناس زلاتهم، فلن يغفر لكم أبوكم زلاتكم». (متى ٦: ١٤، ١٥).

ونفس المعنى تقريباً نجده فى الإنجيل للقديس مرقس، يقول «ومتى قمتم للصلاة وكان لكم على أحد شئ فإغفروا له، لكى يغفر لكم أنتم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم. فإن لم تغفروا، فلن يغفر لكم أيضاً أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم» (مرقس ١١: ٢٥، ٢٦). ويقول الكتاب المقدس «إغفر لقريبك ظلمه لك، فإذا تضرعت تمحى خطاياك. أيحقد إنسان على إنسان ثم يلتمس من الرب الشفاء» (يشوع بن سيراخ ٢٨: ٢، ٣).

وضرب لنا فادينا له المجد مثلاً بالعبد الذى كان مديوناً لسيده بعشرة آلاف وزنة، وسامحه سيده فى العشرة آلاف وزنة، ولكنه لم يرحم رفيقاً له كان مديوناً له بمائة دينار، فغضب عليه سيده، ودفعه إلى المعذبين حتى يوفى جميع ما له عليه، لأنه لم يرحم رفيقه كما رحمه سيده، ويقول رب المجد: «فهكذا يفعل أبى السماوى أيضاً بكم أنتم إن لم يغفر كل منكم لأخيه زلاته من كل قلبه» (متى ١٨: ٢٣ ـ ٣٥).

معنى هذا أنه مطلوب منا أن نغفر لمن أساء إلينا، بل أن مغفرة الرب لخطايانا تتوقف على مغفرتنا لمن أساء إلينا.

إلى أى حد يكون غفراننا للمسيئين إلينا؟

سأل مار بطرس الرسول ربنا يسوع المسيح هذا السؤال، وقال له: «يا رب إلى كم مرة يخطئ إلىّ أخى فاغفر له؟ أإلى سبع مرات؟ فقال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين سبع مرات» (متى ١٨: ٢١، ٢٢)، وليس المقصود هو هذا العدد ٤٩٠ (حاصل ضرب ٧٠ × ٧)، لكن المقصود هو استعداد المسيحى لأن يغفر لأخيه مغفرة بغير حدود.

وقال رب المجد أيضاً فى موعظته على الجبل: «فإذا جئت إذن بقربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك عليك شيئاً، فاترك هناك قربانك على المذبح واذهب أولاً وصالح أخاك، ثمّ تعال وقدّم قربانك» (متى ٥: ٢٣، ٢٤).

من هنا نفهم أن الغفران مطلوب، وأن هذا الغفران شرط لحصول الإنسان على رضا الله، وأنه بدونه لا يكون له هو أيضاً مغفرة أمام الله. ثم أنه ليس لهذا حدود أو قيود.

ما مدى هذا الغفران؟

هنا نأتى إلى سؤال آخر: إنسان يخطئ ضدى دائماً فهل أغفر له دائماً؟ إنه يجئ وقت يتضايق فيه الإنسان ويتذمر قائلا: وإلى متى؟ خاصة وأن هناك شخصاً لا يخطئ إليك جهلاً، بل يخطئ عمداً وقصداً، فماذا تصنع فى هذه الحال؟

شخص يدوس على قدمك ثم يقول لك «سامحنى، أخطأت». هنا تجد من واجبك أن تغفر له، لأنه قد يجوز أن يكون قد داس على قدمك خطأ وجهلاً.

لكن ماذا تصنع لو أن هذا الشخص داس على قدمك قصداً وعمداً، ثم يسخر منك بكلمة «سامحنى»، يقولها وهو عالم أنه سيدوس على قدمك مرة واثنتين وعشرة وعشرين مرة، وهو مطمئن إلى أنك ستغفر له. إنه يطالبك بتنفيذ شريعة الغفران، ولكنه لا يطالب نفسه بأى إلتزام. أليست هذه الظاهرة مألوفة فى عالمنا اليوم؟!!

حق المسيحى فى معاتبة المسىء إليه

إن ما قلناه عن الغفران هو نصف الحقيقة، هذا النصف هوالذى يتكلم به وعاظنا من على منابر التعليم، ولكنهم يهملون عادة النصف الآخر من الحقيقة. وهو ما يعلّم به مخلصنا فى موضعه.

وهذا هو ما يقوله ربنا وفادينا «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد. فإن سمع لك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع لك فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة، فإن رفض أن يسمع لهم فأخبر الكنيسة. فإن رفض أن يسمع للكنيسة فليكن بالنسبة إليك كوثنى وعشار» (متى ١٨: ١٥ ـ ١٧).

هنا نريد أن نضع خطاً سميكاً بل عدة خطوط تحت كلمة «**إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإن سمع لك فقد ربحت أخاك، وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين**». وهذا هو النصف الثانى من الحقيقة. وهو المكمل للنصف الأول. فلقد عرفنا أن من واجبنا أن نغفر لمن أساء إلينا جهلاً أو من غير عمد، ولو كان ذلك مئات المرات. لكن مخلّصنا نفسه أعطى للإنسان حق معاتبة من أخطأ إليه. أنه لم يقل (اغفر) بلا قيد أو شرط، بل أعطى للإنسان حقاً فى أن يعاتب

من أساء إليه. وهذه نقطة مهمة فى العلاقات الإنسانية المسيحية. وكما يقول الكتاب المقدس فى سفر يشوع بن سيراخ : «عاتب صديقك فلعله لم يفعل، وإن كان قد فعل فلا يعود يفعل. عاتب صديقك فلعله لم يقل، وإن كان قد قال فلا يكرر القول. عاتب صديقك فإن النميمة كثيرة. ولا تصدّق كل كلام فربّ زالّ ليست زلته من قلبه» (ابن سيراخ ١٩: ١٣ - ١٦).

إذن من حق الإنسان أن يعاتب من أساء إليه. وهذه المعاتبة نافعة وضرورية، حتى يعرف المسيء أن الفعل أو القول الذى أساء به إلى غيره قد جرح شعور هذا الغير وأذاه. فإذا لم تكن هناك معاتبة ربما كان المسيء لا ينتبه إلى خطئه، وربما أيضاً يتمادى فيه إما عن جهل أو عن قصد. لابدّ للمسيء أن يتبين أنه لا يعامل حيوانات أو جمادات، بل يعامل كائنات بشرية حية لها شعور ولها إحساس ولها كرامة، وأنه بتصرفه أو بكلماته قد أذى شعور غيره ومسّ كرامته.

إن المعاتبة تشعره بخطئه وتنبهه إلى نتائج تصرفه بالنسبة إلى غيره إذا لم يكن منتبهاً إلى ذلك. ثم هى توقفه عند حدّه فلا يتمادى فى تصرفه أو قوله إلى ما هو أبعد. وهذا معنى قول الكتاب المقدس «عاتب صديقك فلعله لم يقل. وإن كان قد قال فلا يكرر القول».

من دون المعاتبة والمحاسبة والمواجهة قد لا يتبين المسيء مدى إساءته، ومدى الأثر الذى أحدثه تصرفه أو قوله فى نفوس الذين أساء إليهم. فيبدأ أن يتعلم كيف يحسب لتصرفه وكلامه حساباً قبل أن يتصرف وقبل أن يتكلم، وعلى هذا الأساس تتقدم العلاقات الإنسانية، ويتعلم الصغار والكبار كيف يعاملون الناس، وكيف يرعون آداب الحديث وآداب التصرف.

كم من الناس الذين نعايشهم ينفجر فى غيره - حينما ينفعل - بغير حساب بكلمات مؤلمة بذيئة جارحة، ومع ذلك يفاخر بنفسه ويقول أنا إنسان أبيض القلب: أغضب ولكننى سريعاً ما أصفح، اشتم ولكننى لا أحقد.

أيها الأخ! أتمدح نفسك على ذلك؟ كيف تجرؤ على أن تصف ذاتك بنقاوة القلب وصفاء الضمير، بعد أن تكون قد أفرغت سمّك فى غيرك، وبعد أن تكون قد آذيت شعوره، وآلمته بتصرفك وبكلماتك، وهدرت كرامته، ومزّقت أحشاءه من الغيظ والألم؟ إنك قد نفّست عن نفسك، ولكنك نفثت شرّك فى قلب غيرك، فأنت استرحت على حساب إيلام غيرك!

ألا تعلم يا أخى أن الكلمة الجارحة تكون أحياناً أحدّ من السيف؟

ألا ترى أنه فى بعض الأحيان يتمنى الإنسان الموت، على أن يسمع كلمة جارحة؟

لذلك كانت المعاتبة لازمة وضرورية، حتى يتبين المخطئ مبلغ خطئه، ويعرف مدى الجرح الذى أحدثه فى غيره بسوء تصرفه أو قبح كلماته، وحتى لا يعود من جديد إلى مثل هذا التصرف المؤلم.

هذا فضلاً عما فى المعاتبة من كشف الحقيقة التى قد تكون مجهولة من كل من المسيء والمساء إليه. فقد يكون التصرف أو الكلام ببراءة أو بحسن قصد، وقد يكون أحد الطرفين أو كلاهما قد أساء الفهم. فالمعاتبة تجلو ما فى قلوب الناس من مشاعر المرارة، لأنها تنير أمام الأطراف المتنازعة ما عساه أن يكون قد نشأ من غضب نتيجة لسوء الفهم أو سوء التعبير.

ثم أن هناك بعض التصرفات أو الأقوال تنقل إلى الناس نقلاً عن طريق وسطاء. والنقل قابل لأن يفسد العلاقات بين الناس، سواء كان ذلك لعدم أمانة

الناقل، أو لعدم دقته فى النقل. وعدم الأمانة شر مقصود، وعدم الدقة شر غير مقصود. ولكن كلاهما شر وينجم عنه شر أو مجموعة شرور. وكم من البلايا والحروب والمنازعات والمخاصمات نشبت بين الأفراد والعائلات بسبب نقل أنباء أو تصريحات أو أقوال لم يرع الذين نقلوها، الأمانة والنزاهة ثم الدقة فى نقلها.

لذلك كانت المعاتبة، ولا سيما بالمواجهة، نافعة بل ضرورية، لأنها تجلو الحقيقة، ولا تدع فرصة للنميمة وما يتبعها من مضار وشرور.

يقول النص الإلهى المقدس: «عاتب صديقك، فلعله لم يفعل. وإن كان قد فعل فلا يعود يفعل. عاتب صديقك، فلعله لم يقل. وإن كان قد قال، فلا يكرر القول. عاتب صديقك، فإن النميمة كثيرة. ولا تصدق كل كلام. فرب زالّ ليست زلته من قلبه».

إذن لقد أعطاك الرب الإله حق المعاتبة. فمن حقك أن تعاتب من أساء إليك. وقد تتنازل أنت عن هذا الحق، وقد لا تتنازل عنه، لكنه على كل حال، هو حقك تملكه. وليس نقصاً منك، أو شراً أو خطأ، أن تعتب على من أساء إليك، بل أنه من النافع أحياناً ومن الضرورى أحياناً أخرى، أن تمارس هذا الحق، لصالحك أنت، ثم لصالح الآخرين.

أما لصالحك، فلأن معاتبتك من أساء إليك تريحك، إذ أنها تغسل الألم، وتشفى النفس، وتأسو الجراح. ولقد أصابوا إذ قالوا فى الأمثال: «العتاب صابون القلوب».

وأما لصالح الآخرين، فلأنه بالمعاتبة يتعلم الناس الحذر والحرص، من أن يقذفوا بالكلمات والتصرفات من غير وعى أو تدقيق، ويوجعون بها غيرهم من

دون مبالاة بمشاعر هذا الغير، يقول مخلصنا يسوع المسيح: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه.. فإن سمع لك فقد ربحت أخاك» (متى ١٨ : ١٥).

وإذن ففى المعاتبة كسب للآخرين، وربح لمحبتهم وصداقتهم.

إن حق المعاتبة حقيقة مسيحية لا تقل خطراً وأهمية عن حقيقة الصفح والغفران للمسيئين إلينا، التى تنادى بها المسيحية. والمسيح له المجد هو الذى علم بالمعاتبة كما علم بالغفران للمسيئين. فليس من الأمانة أن نبرز من تعليم المسيح نصفه ونبتلع النصف الآخر. لقد علمنا المسيح فادينا أن نغفر للمسيئين إلينا من كل قلوبنا، بل قال «إن لم تغفروا للناس زلاتهم، فلن يغفر لكم أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم» (متى ٦ : ١٥)، (مرقس ١١ : ٢٦). ولكنه قال أيضاً: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه» (متى ١٨ : ١٥).

وماذا بعد المعاتبة؟

يقول المسيح له المجد: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإن سمع لك فقد ربحت أخاك» (متى ١٨ : ١٥).

على أن مخلصنا يعلم أن المعاتبة قد لا تجدى أحياناً. ولذلك يتحوط فى تعليمه، ويرشدنا إلى التصرف اللائق فيما لو أن المعاتبة لم تنتج الخير المأمول منها. فيتابع الرب حديثه وتعليمه الصالح، قائلاً: «وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة» (متى ١٨ : ١٦).

نعم، فقد يسمع لك أخوك، وقد يتقبل عتابك عليه بروح طيبة، وقد يعتذر لك عن إهانته وإساءته، اعتذاراً يرضيك. وبهذا تكون قد أربحت نفسك، وربحت أخاك، وكسبت مودته وصداقته من جديد.

حق الاحتكام للآخرين:

ولكن هب أن أخاك لم يسمع لك، كما قد يحدث أحياناً. وهب أنه ثار فى وجهك مبرراً ذاته، مدافعاً عن تصرفاته، فماذا تفعل؟

إن رب المجد يطالبك بخطوة جديدة عملية يجب عليك أن تخطوها. هذه الخطوة هى: «وإن لم يسمع لك، فخذ معك واحداً أو اثنين آخرين، كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة».

وهذا معناه أن الرب قد أعطاك حقاً جديداً، بالإضافة إلى حق المعاتبة، هو حق الاحتكام إلى الآخرين.

فعندما يتعذر التفاهم بين اثنين، ويعسر على المسيء أن يعترف بخطئه بسبب كبريائه وأنانيته وذاتيته، لا يشاء الله أن يضيع الحق هدراً. ولا يسمح الله أن تكون فضيلة الصفح والغفران عند الأبرار والصديقين، تبريراً للطغيان والتجبر عند المسيئين إليهم. فالله يحب الحق، ولا يرضى بالظلم. فما دامت هناك إساءة قد وقعت فعلاً، فلا بد أن يكون ثمت مسيء. ولابد أن يعرف هذا المسيء مبلغ إساءته، حتى لا يهدر الحق، وحتى لا يتجبر الطغاة. فإذا لم يعترف المسيء بخطئه، فلابد أن يكون هناك من يثبت عليه خطأه، ورفعاً ليد الظلم والمسيء، عن المظلوم والمساء إليه.

ومع أن حكم الغير على المسيء أصدق من حكمه على نفسه، أو لنفسه، إلا أنه ضماناً للعدالة، وكفالة للإنصاف، أمر رب المجد أن لا يكون الحكم من جانب رجل واحد ، وإنما من قبل اثنين آخرين أو ثلاثة «كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة».

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الخطأ الذى يتكلم عنه رب المجد يسوع المسيح، هنا، هو خطأ الإساءة الشخصية، أو الإهانة الشخصية، مما يجرى بين الأخوة فى المجتمع بالنسبة لقواعد المعاملات اليومية والشخصية.

ثم إن مخلصنا يقول «إن أخطأ إليك أخوك» وهذا معناه إن الخطأ المقصود هو الخطأ بالفعل، وليس ما يتوهمه الإنسان أنه خطأ، وليس ما يدعيه على صاحبه، إفتراء وظلماً وافتئاتاً.

وهنا حكمة الاحتكام إلى آخرين ليكونوا بمثابة محكمة عرفية غير رسمية، أو لجنة تحكيم ومصالحة، تدرس موضوع الإساءة، وتتدخل لحل النزاع. هذه اللجنة الصغيرة المؤلفة من عضوين أو ثلاثة أعضاء، ينبغى أن يتصف أعضاؤها بالحيدة والإنصاف، ومحبة الحق، وبروح المحبة والسلام.

حق الاحتكام إلى رجال الكنيسة:

بعد أن أعطاك ربك حقك فى معاتبة من أخطأ إليك، بينك وبينه على انفراد فإذا لم يسمع لك، فمن حقك «أن تأخذ معك واحداً أو اثنين آخرين كى تثبت كل كلمة بشهادة اثنين أو ثلاثة» يمضى الرب يسوع إلى احتمال أبعد.

هب أن أخاك الذى أخطأ إليك تقسى وتجبر ولم يقبل عتابك عليه، ولم يقبل تدخل الآخرين كبرياء، وترفعاً، وإيغالاً منه فى الحقد والكراهية فماذا تصنع؟

لقد أعطاك ربك حقاً آخر، هو حق الاحتكام إلى الكنيسة، إلى قيادتها الروحية وإلى مجلسها.

يقول المسيح له المجد:

«فإن رفض أن يسمع لهم فأخبر الكنيسة» (متى ١٨: ١٧).

ولابد أن يكون المقصود بالكنيسة هنا هو قيادة الكنيسة، ومجلسها المحلى.

ذلك أن الخطوة السابقة، هى فى احتكامك إلى اثنين أو ثلاثة تأخذهم معك إلى أخيك الذى أخطأ إليك. ولابد أن تكون هذه اللجنة الصغيرة من أعضاء الكنيسة ومن بين المؤمنين فيها، وليس من المعقول أن يكونوا من غير المؤمنين أو من الخوارج.

يقول الكتاب المقدس:

«أيجرؤ أحدكم إذا كانت له دعوى على غيره أن يقاضيه لدى الظالمين وليس لدى القديسين؟ أما تعلمون أن القديسين سيدينون العالم؟ فإن كان العالم يدان بكم أفتكونون غير أهل للمحاكم الصغرى؟ أما تعلمون أننا سندين ملائكة؟ فما أولانا بأن نحكم فى قضايا هذه الحياة. فإن كان لكم محاكم فى أمور هذه الحياة، فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة للقضاء. أقول هذا لإخجالكم» (١ . كورنثوس ٦ : ١ ـ ٥).

وقياساً على هذا أمرت الدسقولية (تعاليم الرسل) بتشكيل محكمة كنسية فى كل إيبارشية، تتألف برئاسة الأسقف ومن قسوس الإيبارشية وشمامستها للنظر فى شكاوى المؤمنين، والفصل فيها.

جاء فى الدسقولية:

ليحضر معكم يا أساقفة، فى مجلس الحكم، القسوس والشمامسة واحكموا بلا أخذ بالوجوه، بل بعدل، كأناس الله.. وليكن اجتماعكم للأحكام من يوم الاثنين فإن كل ثمة خصومة فصلتم فيها، وتتفرغون لذلك طوال الأسبوع إلى يوم السبت، إلى أن تنقضى الخصومة، حتى إذا كان يوم الأحد المقدس تكونون قد أصلحتم بين المتخاصمين، وإذا حضر عندكم الخصوم، فليقف الفريقان أمامكم فى وسط مجلس الحكم كما قالت الشريعة، وإذا سمعتم خصومتهم فأحكموا بينهم بالحق والعدل. ولا تحكموا بقول خصم واحد قبل حضور

خصمه، بل إذا اجتمع الخصمان فأحكموا بينهم بالعدل.. وفى جلوسكم فى موضع الحكم، ومعكم الفريقان يختصمان وجهاً لوجه، فلا تسموهما أخوة إلى أن يصطلحا، وأفحصوا عما بينهم بالحقيقة. وقد قلنا أنه يجب أن لا يحكم على خصم واحد بغير حضور الفريقين معاً، لأنكم إذا سمعتم كلام فريق واحد وحجته فى دعواه التى يدعيها، وأوجبتم قضيته، وقطعتم الحكم بسرعة، والفريق الآخر ليس حاضراً معكم ليجيب عن نفسه، ويحتج عما نسب له، فإنكم تكونون مستحقين للقتل الذى حكمتم به، وتوجدون أمام الله ضابط الكل، شركاء لنصيب الكذاب» (الدسقولية، الباب الثامن ٣١: ٣٤).

وقد لا يقتضى الأمر أن يحتكم الإنسان إلى أسقف الإيبارشية وإلى المحكمة الكنسية أو المجلس الإكليريكى فى الإيبارشية، فقد يكفى الاحتكام إلى كاهن الكنيسة ومجلسها المحلى. فإذا لم ينجح مجلس الكنيسة برئاسة الكاهن فى فض النزاع، فيمكن رفعه إلى أسقف الإيبارشية ومجلسها الإكليركى.

الخطوة الأخيرة:

ويمضى الرب يسوع فى حديثه بالنسبة إلى المسىء والمساء إليه إلى أبعد مدى، فيفترض أن أخاك الذى أخطأ إليك رفض أن يسمع لحكم الكنيسة، ومجلسها المحلى أو الإكليريكى، فما هو موقفك منه بعد ذلك؟

يقول المسيح له المجد: «فإن رفض أن يسمع للكنيسة ، فليكن بالنسبة إليك كوثنى وعشار» (متى ١٨: ١٧).

إذا رفض أخوك أن يسمع لحكم الكنيسة لم يعد مسيحياً، بل أمسى محروماً، مقطوعاً من شركة الكنيسة ولم يعد بهذا الوضع أخاً لك فى دين المسيح، مثله

مثل الوثنى والعشار بالنسبة إليك سواء بسواء ومعنى هذا أنك قد أرضيت ضميرك، إذ صنعت كل ما فى جعبتك من نحوه. فعلى الرغم من أنه هو المخطئ فإنك سعيت إليه لتصلح الأمور بينكما، وبذلت كل ما فى مقدورك من أجل أن تسترد علاقتك به، وتربح صداقته. إن باحتكامك آخر الأمر إلى الكنيسة قد خطوت الخطوة الأخيرة ولن يكلفك أحد بخطوة أخرى بعدها. فعليك بعد ذلك أن تستريح من أمر هذا الخلاف، وتطرحه من قلبك ومن فكرك. فقد خرج عن دائرتك وعن دائرة إختصاصك، وصار أمره مرفوعاً إلى الله فى يوم الحساب. أما أنت فقد رفعت عبء المشكلة عن كاهلك، وقد صارت بين يدى القاضى العادل، ولك أن تردد بعد ذلك قول الوحى الإلهى «إنه يوجد إله قاض فى الأرض» (مزمور ٥٧: ١١) وقوله «الله قاض عادل» (مزمور ٧: ١١)، (٩: ٤) «وهو يقضى للمسكونة بالعدل» (مزمور ٩: ٨) وسلّم الأمر للرب، كما فعل سيدك المسيح من قبل، الذى «إذ تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضى بعدل» (١. بطرس ٢: ٢٣).

على ذلك النحو نفهم تعليم المسيح له المجد، فى غفران الإساءة للمسيئين .. إن المسيح علمنا بأن نصفح وأن نغفر لمن أساء إلينا بغير حدود. ولكنه فى نفس الوقت علمنا كيف نخطو فى سبيل تحقيق السلام بيننا وبين الأغيار، خطوات متدرجة تفضى بنا أخيراً إلى تحقيق مبادئ الإنجيل، فى مسيرتنا نحو السماء.

من حقك أن توبخ من أخطأ إليك

يقول مخلصنا وربنا يسوع المسيح: «إن اخطأ إليك أخوك، فوبخه. فإن تاب فأغفر له. وإن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم، ثم رجع إليك سبع مرات قائلاً: إننى تائب، فأغفر له» (لوقا ١٧ : ٣، ٤)

فى هذا النص القدسى، يتضح تعليم المسيح له المجد فى موضوع الغفران، كاملاً، وشاملاً.

إنه أولاً: أمر بالغفران لمن أساء إلينا، غفراناً كاملاً وتاماً، مهما كان عدد مرات الإساءة: «إن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم.... فأغفر له» ويلاحظ أن العدد ٧ هو من أعداد الكمال، أى أن الرقم غير مقصود لذاته حرفيا، وإنما هو رمز يشير إلى رقم غير معّين، وغير محدود. والمعنى أنه «إن أخطأ إليك أخوك سبع مرات فى اليوم (أو أى عدد من المرات فى اليوم) .... فأغفر له» وفى موضع آخر من الإنجيل يرد قول المسيح له المجد «لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين سبع مرات» (متى ١٨ : ٢٢).

ثانياً: أنه جعل الغفران مشروطا بتوبة المسيء إليك. «إن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم، ثم رجع إليك سبع مرات قائلاً: أننى تائب، فأغفر له»

ثالثاً: أنه منح المساء إليه الحق فى أن يوبخ المسيء، بقوله «إن أخطأ إليك أخوك، فوبخه. فإن تاب، فأغفر له».

وإذن لقد أعطاك ربك حقاً جديداً. هو حقك فى توبيخ من أخطأ إليك. وحق التوبيخ أقوى من حق المعاتبة. ولئن كانت المعاتبة والتوبيخ من نوع واحد، لكن التوبيخ أقوى فى الدرجة.

على أن المسيحى إذا وبخ أخاه، فتوبيخه له يجب أن لا يخرجه عن الوداعة والسماحة والمحبة التى يجب أن يكون ملتحفا بها دائما. ثم أن توبيخ المسيحى لأخيه الذى أخطأ إليه، توبيخ هادف نحو الخير العام، وخير القريب. فليس هذا التوبيخ من نوع الانفعال غير المرتب أو غير المهذب الذى يندفع به الإنسان منطلقاً كالصاروخ من غير تحكم ومن غير ضبط لنفسه، تنفيساً عن روح الغضب التى امتلأ بها صدره رداً للفعل بمثله، أو أكثر منه. إنما التوبيخ الذى يتمشى مع روح المسيحية هو التوبيخ الهادف إلى تحقيق الصلح والسلام، تنبيها للمخطىء إلى خطئه وإساءته حتى لا يعود إلى تكرار الفعل الخاطىء مرة أخرى. هو إذن توبيخ من نوع نافع وصالح ومفيد، لأنه فى حقيقته تنبيه إلى الخطأ، حتى لا يعود المخطىء مستقبلاً إلى هذا الخطأ مرة أخرى، لا مع المساء إليه، ولا مع غيره من الناس.

ومن هنا كان الغفران بعد التوبيخ، أفضل للخير للعام، ولخير القريب، من الغفران بغير معاتبة أو بغير توبيخ. وهى مرحلة فى الفضيلة، ينتقل بها المسيحى العادى إلى درجة الطبيب الروحى، الذى يهدف بعلاجه للمريض وللمرض، إلى فائدة المريض، وإلى خير المجتمع البشرى بأسره.

وإذن فتعليم المسيح هنا، يرشدنا إلى فضيلة أكثر تقدماً من فضيلتى الاحتمال، والغفران... أنه ينبه إلى فضيلة أعظم.. هى فضيلة كسب المسىء إلى جانب الخير، وتعليمه درساً ينفعه لحاضره ومستقبله، فى علاقاته الشخصية والاجتماعية مع الأغيار.

وبعبارة أخرى، إن من يصفح عمن أساء إليه، مسيحى فاضل، لم يرد الإساءة بإساءة، ولا الشتيمة بشتيمة، بل احتمل الإساءة وصبر عليها، وعلى فاعلها. وهذه هى فضيلة الاحتمال التى يوصينا الكتاب المقدس بها: «فالبسوا كمختارى الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً، وتواضعاً، ووداعة، وطول أناة، محتملين بعضكم بعضاً، ومسامحين بعضكم بعضاً. إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً» (كولوسى ٣: ١٢، ١٣). «محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة» (أفسس ٤: ٢) ويقول الرسول القديس بولس «فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء ولا نرضى أنفسنا» (رومية ١٥: ١).

والمسيح له المجد هو مثلنا الأعلى فى الاحتمال أنه «احتمل الصليب» ثم «احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه» (العبرانيين ١٢: ١، ٣). وكذلك الآباء الرسل احتملوا أخطاء الناس وشرورهم ضدهم فقال القديس بولس «نشتم فنبارك نضطهد فنحتمل» (١ . كورنثوس ٤: ١٢). وقال الرسول أيضاً عن نفسه وعن زملائه «بل نحتمل كل شىء» (١ . كورنثوس ٩: ١٢) لأن «المحبة تحتمل كل شىء» (١ . كورنثوس ١٣: ٧).

على أن الاحتمال وإن كان فى ذاته فضيلة سامية، لكنه فضيلة لها جزاؤها، وجزاؤها هو لصانعها. «طوبى لمن يحتمل... لأنه إذا تزكى، ينال اكليل الحياة الأبدية الذى وعد الرب به للذين يحبونه» (يعقوب ١: ١٢).

هذا الجزاء فردى أو شخصى. أما الذى يضيف إلى فضيلة الاحتمال، وفضيلة الغفران لمن أساء إليه، شيئاً آخر وهو أن «يوبخه» على خطئه، وهو

يقصد بذلك تنبيهه إلى الخطأ حتى لا يعود فيقع فى نفس الخطأ من جديد، بالنسبة إلى أى شخص آخر، فقد صنع بأخيه خيرا، وقيّد عنقه بفضل جديد، لأنه لم يحتمل إساءته فقط، بل أشفق عليه من نتائج إساءته أو إساءاته، وأراد أن يجنبه الوقوع فى أمثالها مستقبلاً، فتجلّد، وتجمّل بالصبر، وتقدم إليه وهو مجروح منه، يطلب إليه أن ينتبه إلى نفسه، حتى لا تتفاقم خطاياه، فتزداد دينونته وعقوبته. هذه فضيلة جديدة لا يقوى عليها إلا من بلغ درجة عالية من الحّب، والإيثار الخالص، إيثار الغير على نفسه، غير ناظر إلى ما هو لنفسه فقط، بل إلى ما هو لآخرين أيضاً، (فيلبى ٢ : ٤).

وخلاصة القول أن من يغفر لمن أساء محتملاً إساءته، من دون أن ينبه المسيء إلى خطئه يصنع خيرا واحد، هو خير نفسه هو. أما من يغفر ثم ينبه المخطىء إلى خطئه، فيصنع خيورا كثيرة، بقدر عدد الأشخاص الذين يربحهم بتنبيهه، وبقدر عدد الشرور التى يوقفها بهذا التنبيه أو التوبيخ، بشرط أن يكون محمولاً فى هذا التوبيخ بروح المحبة لقريبه، والإهتمام به، وليس مدفوعاً بانفعالات الغضب غير المرتب، تعبيرا عن محبة الذات، وتنفيساً عن الغيظ الجسدانى.

ماذا صنع مخلصنا؟

ماذا صنع مخلصنا عندما لطمه أحد خدام رئيس الكهنة على وجهه، أثناء المحاكمة؟

هل غفر المسيح لذلك الخادم خطيئته؟

نعم، أنه غفر له، كما غفر لكل الذين أساءوا إليه، حتى صلى من أجلهم على الصليب قائلاً: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما هم فاعلون» (لوقا ٢٣: ٣٤).

ولكنه لم يغفر فقط، بل وبخ المسيء ونبهه إلى خطئه قائلاً: «إن كنت أسأت فى الكلام، فقل لى أين الإساءة. وان كنت أحسنت، فلماذا تضربنى؟» (يوحنا ١٨: ٢٣).

إن مخلصنا يعطينا هنا فى هذا الموقف التفسير الصحيح لتعليمه الذى فاه به فى موعظته على الجبل، وهو «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الإنسان الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (متى ٥: ٣٨، ٣٩)، (لوقا ٦: ٢٩).

فماذا صنع مخلصنا يسوع المسيح عندما لطمه الخادم على وجهه؟

لابد أن يكون تصرف الرب يسوع فى هذا الموقف هو التفسير الصحيح لتعليمه فى الموعظة على الجبل. لأنه من أقدر من فادينا المسيح على أن يقدم فى سيرته المثل الأعلى والنموذج الكامل فى التصرف المسيحى الدقيق؟!

إن سيدنا لم يحول خده الآخر للخادم الذى صفعه، بالمعنى الذى يتبادر لأول وهلة لمن يقرأ تعليمه فى الموعظة على الجبل، لكنه بالأحرى حول خده إذ أدار رأسه نحو الخادم وهو يعاتبه عتاب محبة واسعة، ويوبخه توبيخ الوداعة، المحركة للشعور، والموقظة للضمير قائلاً: «إن كنت أسأت فى الكلام فقل لى أين الإساءة. وإن كنت أحسنت، فلماذا تضربنى»؟

نقول إن فى هذا الموقف إيضاحاً لتعليم الموعظة على الجبل، بل وإجابة صريحة كاملة وعملية على من يسألوننا: هل أحول خدى الآخر لمن يلطمنى على خدى الأيمن؟

وهنا نلاحظ:

أولاً: إن مخلصنا لم يقابل شر من صفعه، بشر نظيره، فلم يضربه على وجهه، مع أنه كان يمكنه أن يجعل الأرض تميد من تحته، وتفتح فاها وتبتلعه حيا.. فلم يفعل.

ثانياً: كان فادينا مستعداً أن يتحمل مزيداً من شر ذلك الرجل الجسور، لو أنه تطاول ومد يده مرة أخرى وصفع الرب يسوع على خده الأيسر. بل إن ربنا يسوع لم يجب بشر، على الآخرين الذين ضربوه وهو يحاكم فى بيت رئيس الكهنة، قال الإنجيل: «وعندئذ راح بعضهم يبصقون فى وجهه ويلكمونه، وراح آخرون يغطون وجهه ثم يلطمونه على وجهه، ويهزأون به ويضربونه قائلين له: «تنبأ لنا أيها المسيح من الذى لطمك الآن». «وراح الخدم يصفعونه» (مرقس ١٤: ٦٥)، (متى ٢٦: ٦٧، ٦٨). (لوقا ٣٣: ٦٤، ٦٥). وكذلك فعل جند بيلاطس البنطى الحاكم الرومانى. يقول الإنجيل أيضاً «ثم

راحوا يبصقون فى وجهه، وأخذوا القصبة وراحوا يضربونه على رأسه، وكانوا يلطمونه، (متى ٢٧ : ٣٠)، (مرقس ١٥ : ١٩)، (يوحنا ١٩ : ٣).

أنه لم يقابل صنيعهم الرديء بشر، فكان يعمل بما علّم به من قبل «شتم ولم يرد الشتيمة بمثلها. تألم ولم يهدد» (رسالة القديس بطرس الأولى ٢ : ٢٣).

هذا الاستعداد لاحتمال الإساءة إلى أبعد مدى هو المقصود بقوله «من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً» كالمقصود من قوله «ومن أراد أن ينازعك ويأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً. ومن سخرك بأن تسير ميلا واحدا فاذهب معه اثنين» (متى ٥ : ٤٠، ٤١) فلا يعقل أن يسخر المسيحى ليسير ميلا فيذهب مع من سخره ميلين من دون مبرر، ومن غير أن يطلب منه ذلك، وإلا كان مجنوناً مخبولاً. إنما المعقول أن يكون المقصود من تعليم الرب يسوع أن يكون المسيحى مستعدا - فى سبيل السلام - أن يخطو خطوة أخرى، أبعد مدى من الخطوة الأولى إذا طلبوا منه ذلك، أو إذا رأى أن السلام يقتضى ذلك. أى أن يكون مهيأ لكل تضحية تطلب منه من أجل السلام، ولو كانت هذه التضحية أكبر من التضحية الأولى، وأعظم منها.

ولا نظن أن المسيح له المجد، بمعاتبته للخادم الذى صفعه على وجهه، أنه نقض تعليمه فى الموعظة على الجبل، إذ لم يحول للخادم خده الأيسر. إن المسيح أدار بالفعل وجهه الآخر، جسدياً وروحياً.

أما جسدياً فلأنه لابد أن يكون خده الأيمن قد تحول بقوة الصفعة عن وضعه الطبيعى إلى اليسار، فلم يبقَ خد المسيح كذلك، لكنه أداره له المجد مرة

أخرى نحو الخادم الذى صفعه، فصار خده الأيسر فى مواجهة الضارب، لو أراد أن يعيد الكرة على هذا الخد الأيسر...

وأما روحياً، فلأن المسيح حول الإهانة إلى الجانب الآخر، فكان كالطبيب إذا صفعه المريض، لم يغضب للصفعة لأنها من مريض، وإنما استدل من هذه الصفعة على سوء صحة المريض، وأنه ما كان يصفع طبيبه إلا لأن الحمى قد صعدت إلى دماغه فأفقدته الوعى، ومن هنا وجه المسيح يسوع إلى الخادم عتاباً يرده إلى وعيه، ويستثيره على التفكير فى تصرفه وما فيه من خطأ، حتى يندم على خطئه، وحتى لا يعود إلى هذا الفعل مرة أخرى لا مع المسيح ولا مع غيره، فينقذ نفسه من العقوبة الأبدية.

أن المعاتبة والتوبيخ هنا، فضيلة أعظم من فضيلة الاحتمال مع الصمت، لأن الاحتمال مع الصمت فضيلة لها جزاؤها لصاحبها. أما المعاتبة ففضيلة تتميز بالغيرية والإيثار، لأنها تدل على إهتمام بالمسىء، وإشفاق عليه من نتائج إساءته، وتنبيه له ينفعه للحاضر والمستقبل، كما ينفع آخرين من يشهدون ويراقبون. ولعل الرجل خجل بعد ذلك من نفسه لأنه لم يحر جوابا على سؤال المسيح: «إن كنت أسأت فى الكلام، فقل لى أين الإساءة. وإن كنت أحسنت، فلماذا تضربنى؟» ولعله انزوى وأخذ لنفسه درساً نفعه كل أيام حياته.

وماذا صنع الآباء الرسل؟

سجل لنا الوحى الإلهى موقفا من مواقف الآباء الرسل يستحق النظر والتأمل.

كان القديس بولس الرسول يخطب فى أورشليم أمام ليسياس الأمير وأمام رؤساء الكهنة وكل مجمعهم، وقال: أيها الرجال الأخوة أنى بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم. فأمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده أن يضربوه على فمه. حينئذ قال له بولس: سيضربك الله أيها الحائط المبيض. أفأنت جالس تحكم علىَّ حسب الشريعة وأنت تأمر بضربى مخالفاً للشريعة. (أعمال الرسل ٢٣: ١ ـ ٢).

ونحن لا نعلم على وجه اليقين إذا كان القديس بولس قد ضربه القائمون إلى جواره بحسب الأمر الصادر إليهم من حنانيا رئيس الكهنة، وأغلب الظن أنهم صنعوا به ذلك. ولم تكن هذه هى المرة الأولى أو الوحيدة التى ضرب فيها رسول الجهاد. فقد ضربوه هو وزميله سيلا بالعصىَ فى مدينة فيلبى، وجلدوهما وأثخنوهما بالجراح (أعمال الرسل ١٦: ٢٢، ٢٣، ٣٧)، وكذلك فعلوا به فى أورشليم (أعمال الرسل ٢١: ٣٢)، (٢٢: ٢٤). ولقد روى لأهل كورنثوس بعض أتعابه وآلامه التى احتملها من أجل المسيح، وذلك دفاعاً عن حقيقة رسوليته فقال مقارناً نفسه بسائر الرسل: «أنا فى الأتعاب أكثر، ... وفى الضرب أكثر... جلدنى اليهود خمس مرات أربعين جلدة إلاَّ واحدة. وضربت بالعصىَ ثلاث مرات، ورجمت مرة» (٢. كورنثوس ١١: ٢٣ ـ ٢٥). وقال مرة أخرى لأهل كورنثوس: «بل نظهر فى كل شىء أنفسنا كخدّام الله فى صبر

كثير، فى شدائد فى ضرورات فى ضيقات، فى ضربات...» (٢ . كورنثوس ٦ : ٤، ٥).

فالقديس بولس وغيره من رسل المسيح لم يقاوموا الأشرار، ولم يردوا الشتيمة بشتيمة بل احتملوا شر الناس من أجل الإنجيل. يقول القديس بولس: «وإلى هذه الساعة نحن نجوع... ونلطم... نشتم فنبارك، نضطهد فنحتمل...» (١ . كورنثوس ٤ : ١١، ١٢).

أما أن القديس بولس جاوب رئيس كهنة اليهود بقوله: «سيضربك الله أيها الحائط المبيَّض» فلم يكن جوابه هذا من نوع الشتم، كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، وإنما كان قوله نبوءة على ما سوف يصيب رئيس كهنة اليهود من ضربة إلهية، بدليل أنه يستخدم صيغة المستقبل فى عبارته «سيضربك». ذلك لأن رئيس كهنة اليهود سلك بالنفاق على عكس ما كانت تتطلبه مسئوليته الكهنوتية، فصار يحجز الخير عن الناس، شأنه شأن «الحائط المبيض» أو كما قال مخلصنا يسوع المسيح، يصف قادة اليهود بأنهم يشبهون «القبور المبيضة» (متى ٢٣ : ٢٧). ولذلك ضربه الرب كقول القديس بولس، ونزع منه كهنوته وهذا هو معنى التجاهل الأليم الذى أبداه القديس بولس لكهنوت الرجل عندما قال له الحاضرون ، أتشتم رئيس كهنة الله؟ فأجاب القديس بولس «لم أكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة» على الرغم من أن القديس بولس كان يعرفه معرفة شخصية وقد تعامل معه يوم أن كان يضطهد المسيحيين (أعمال ٩ : ١، ٢)، (٢٢ : ٥)، (٢٦ : ٢، ٧)، وعلى الرغم من أنه لابدّ أن يكون معروفاً على الأقل من زيه، بل أن القديس بولس، كان يخطب فى مجمع اليهود وكان

حنانيا رئيس المجمع وعندما أمر حنانيا أن يضربوه على فمه قال له «أفأنت جالس تحكم عليّ حسب الشريعة» ... وغير ذلك من بينات تدل على أن القديس بولس كان يعلم تمام العلم أن حنانيا رئيس كهنة اليهود. وأما قوله «لم أكن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة» فهو تعبير عن الاستنكار التام لكهنوت حنانيا، وينبيء عن عدم الاعتراف به رئيس كهنة بعد أن نزع الله كهنوته منه.

ومهما يكن من أمره، فالرسول بولس لم يشتم رئيس كهنة اليهود كما قد يتبادر لمن يقرأ عبارة الرسول قراءة سطحية، لكنها نبوءة من جهة ثم هي حكم قضائي من صاحب سلطان رسولي، كرسول للمسيح، من جهة أخرى. أن الرسول بولس لم يرد الشتيمة، ولم يقاوم شر الرجل بشر نظيره، لكنه وبخه على تصرفه لعله يفيق من غفلته، ويرجع عن شر قلبه.

أيهما الأعظم؟

وبعد، فأيهما الأعظم والأفضل: أن يحتمل المسيحى إساءة من يسىء إليه أم ينظر إليه بإشفاق كما ينظر الطبيب إلى المريض؟

إن فضيلة الاحتمال مجردة عن العتاب والتوبيخ عند الاقتضاء، فضيلة رواقية نادى بها الفلاسفة الرواقيون، الذين قالوا: إن الفضيلة العظمى هى فى ضبط النفس، وكظم الغيظ. لكن أساس هذه الفضيلة عند فلاسفة الرواق ليس هو الحب والإشفاق على المخطىء كمريض يحتاج إلى العلاج، بل أساسها عندهم هو الكبرياء والتعالى والترفع عن الإسفاف والتنزل بمستوى الإنسان إلى مستوى المسىء إليه، على الرغم مما قد ينطوى عليه قلب المساء إليه من غيظ وحنق وكراهية وبرغبة فى الانتقام. هذه الروح المتكبرة المتغطرسة فى الاحتمال وضبط النفس السائدة عند كثير من الناس هى التى عبر عنها الشاعر العربى بقوله:

يخاطبنى السفيه بكل قبح وأكره أن أكون له مجيباً

أما فضيلة الاحتمال المسيحى فتنبع من الحب والإشفاق ومعاملة المسىء كمريض يحتاج إلى علاج، وتغذيها رغبة الخير، خير القريب الخاص وخير البشرية العام. ولذلك فإنها تكتمل بالمعاتبة والتوبيخ لأنهما نافعان بل ضروريان لتحقيق هذا الخير العام والخاص.